جميل عطية ابراهيم

تجليات أدبية

المسألة الهمجية

رواية

ميريت

إهـــــــــداء ٢٠١٠

الاستاذ الدكتور سعد الفيشاوى وحرمه د./ نيفين
جمعه علم الدين

المسألة الهمجية

المسألة الهمجية
رواية

جميل عطية إبراهيم

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٨٢٤٩

الترقيم الدولى: 977-351-151-0

جميل عطية إبراهيم

المسألة الهمجية

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٣

ـ أ ـ

قبل الرواية

قبل الرسام الشرط المستحيل الذي وضعه شيخ الطريقة عند بيع الشــقة ، ويتلخص في ضرورة العناية ببندق . قال الرسام لنفسه : حقيقة تسعد ووهم لا يضر . وقبل المستحيل .

ومــنذ سنة ١٩٧٥ والفنان يسكن الشقة ويعني ببندق ، وبندق صــبي قــتل ظلما علي يد الفرنسيس أثناء حملة نابليون علي مصر ودفن جثمانه تحت العمارة التي كانت إسطبلا لخيول بونابرت .

من أوراق الدكتورة سلمى مرجان

— ب —

طريق القتل نفق طويل مظلم تهزه رياح عاتية وتزمجر فيه أصوات عجيبة جهنمية وتعربد في أرجائه أرواح شريرة إذا عرف الناس ، والعاقل من عرف هذه الحقيقة في صباه وشبابه قبل قضاء الله ، ويا حبذا لو تبينها في سنوات حلمه ، لوفر علي نفسه وعلي الآخرين معاناة لا مبرر لها .

أسباب القتل كثيرة ، والعاقل من احترز قبل أن تسرقه ساعات يقظته ..

من أوراق نبيل سعيد المفقودة

- ج -

وتـبدو أفكار الهمجي للوهلة الأولي وهمية ، ولكنها ليست بأية حال مضطربة أو متناقضة ، ويتصور الهمجي منطقه معصوما من الخطأ علي نحو ما .

الدولة والأسطورة

ارنست كاسيرر

– د –

ايرلندية في مخيم جنين

اســمي كويــفا بيترلي . ايرلندية . كان عمري ٢٣ عاما تقريبا عــندما توجهــت إلي مخيم جنين قادمة من قرية أم الفحم في إبريل ٢٠٠٢ بعد وقوع المذبحة .

مريم الوشاحي صديقتي ومنير الوشاحي ابنها نزفا حتى الموت وثلاثة آخرون من معارفي قتلوا بالرصاص .

مــنع الإســرائيليون عمليات رفع الأنقاض والبحث عن أحياء وقمــت مع فرق الهلال الأحمر الفلسطيني برفع الأنقاض بالجاروف في غيبة المنظمات العالمية .

حفــرت يومــا كاملا تحت أنقاض بيت ضرب بالقذائف وسوته البلدوزرات . عثرت علي جثمان ولم أعرف في البداية أنه لصديقي محمــود الطّوالبــي . مــع استمرار عملية الحفر وجدت بقايا أغذية أطفال وبعدها وجدت جثمانا ممزقا لطفل صغير وإلي جواره مشبك ضفيرة شعر وبعد عدة أيام من الحفر عثرت علي جثمان طفلة .

كنت وسط الجحيم وأشعر بالذنب لأنني لم أكن حاضرة المذبحة لعلني كنت ساعدت واحدة مثل مريم صديقتي وأنقذت طفلة رضيعة علي الأقل .

يدهشني فهم الطفل الفلسطيني لهذه الأوضاع علي وجهها الصحيح بينما العالم كله يرفض الفهم .

أطلق قناص إسرائيلي من دبابة قريبة مني رصاصة حية اخترقت فخذي الأيسر وخرجت من الناحية الأخرى ليمنعني من التجول بين الأنقاض . أسلمت نفسي للعلاج في المخيم فالفلسطينيون هم أكثر الناس خبرة في العالم في معالجة الناس من إصاباتهم بالقنابل وقذائف الدبابات والرصاص الحي وإن نقصتهم الأدوات الطبية علي الدوام .

عمري الآن ٢٤ عاما وإذا عشقت رجلا سيكون فلسطينيا ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

شهادة حية في جنيف يوم ٦ مارس ٢٠٠٣

١

- اللعــب

من أين يأتي كل هؤلاء الناس ؟ هل هم راحلون أم عائدون ؟ لا أحد يعرف .

تفزعني حركة الأشياء أكثر من الزعيق ، تخلصت من نظارتي قــبل مغــادرة الفــندق . وجهتي مكتب صديقي المحامي القريب ، لترتيب أوراق قضاياي .

قضيتان تشغلاني : قضية شقتي المغتصبة التي تنظرها المحاكم مــنذ سبعة عشر عاما ، وزاد عليها في الأيام الأخيرة تهديد كمــال بــك الأغــبر صاحب العمارة لي ، وقضية أخرى تتعلق بالمحكمة الجنائــية فـــي روما ، ولم تبدأ المحكمة في نظرها لأسباب عالمية خارجة عن إرادتي .

في الحقيقة أنا تشغلني محاكمة مجرمي الحرب أكثر من استعادة شقتي ، وأضحك طوال الوقت من نفسي ، فأنا من أحاد الناس ، ولا يصـــح لي أن أتطلع إلي المحكمة الجنائية في روما ، وقد فشلت في اســترداد شــقتي في القاهرة فما بالنا بالقضاء الدولي ، كما أنني لم

أدرس القانون من أصله ، لكنها قلة العقل .

رأيت مفاتحة صديقي المحامي في هذه المسألة ، أقول له بالفم الملآن تعبت .

علي ناصية مكتب المحامي ، صادفتني شابة فاتنة ترتدي ملابس سوداء واسعة طويلة تبيع الفل وبالونات منفوخة ، غيرت رأيي بعد رؤيتها تلاعب طفلين ، أفاتح المحامي في مسألة تنازلي عن قضية شقتي فقط .

التقطت الشابة نظرتي وأقبلت ناحيتي ، وقالت : فل . رأيت عقود الفل المعلقة حول ذراعها وعنقها وصدرها ، تركت عقود الفل ومددت يدي إلي البالونات المنفوخة التي تطيرها بيديها .

اشتريت عشرين بالونة غير منفوخة وضعتها في جيبي وحاسبتها ومضيت .

أكرمت البنت وسألتها عن اسمها ، بسبب الود الذي رأيته في عينيها وفي بسمتها ، وبسبب تلك الغمزة السرية التي رمتني بها ، وهزة صدرها التي أطلقتها وهي ترحب بي ، وتلك البحة في صوتها ، وهي تهمس لي : الفل لأهل الفل . فهذه الشابة ليست بائعة فل أو بالونات منفوخة، هذه ساحرة ، وقد تبينت سحرها ومضيت في طريقي .

في مكتب صديقي المحامي ، لم تغادر صورة بائعة الفل

مخيلتـــي ، وأكـــون كاذبـــا لو قلت إنني نسيتها ، نظراتها فيها شبق ورغـــبة وتطلع ، أعطتني شيئا من شبابها الغض ، ولم أقل لصديقي المحامـــي إننـــــي تعبت ، ولأننا لم نكن وحدنا لم أحدثه عن بائعة الفل ، وعرفني علي الدكتورة سلمى مرجان ، وهي شاعرة وساحرة أيضا .

كانت الدكتورة سلمى مرجان جالسة وإضاءة خلفية تسقط عليها من مصباح كهربائي إلي يمينها في الخلف ، أما صديقي فكان يجلس إلـــي مكتبه ، علي يسار القادم من الباب ، ونافذة كبيرة خلفه تغرق المكتـــب بـــنور الشـــمس . اندفعـــت وسلمت عليه ، وبعدها تبينت وجودهـــا ، أحنيت رأسي لـــها وأنا أقف إلي جوار صديقي ، فقالت وهي جالسة : أهلا أستاذ نبيل سعيد .

سألني المحامي : سمعت آخر الأخبار ؟ قلت : نعم . وأكملت : وقمت بواجب العزاء .

ابتســـم صديقي المحامي ولم يعلق . بعدها قدمني إلي الدكتورة ســـلمى مـــرجان بكلمـــــات طيبة ، وقالت إنها تعرفني منذ سنوات دراســـتها فـــي الجامعة ، وتتابع كتاباتي . ابتسمت . قال المحامي : الدكـــتورة سلمى مـــن المثقفات النشيطات . قلت : قرأت لها شعرا ودراسات .

فـــي ساعة واحدة تعرفت علي امرأتين : أستاذة جامعية حسناء

تعرفني ، وبائعة فـل فاتنة ، بداية لا بأس بها ، هذه هي القاهرة .

أخذتنـي مدينتي بالود وفارقتني غربتي ، تخلصت من قضاياي السـخيفة والغريـبة التي ترهقني مـع كلمات الدكتورة سلمى وهي تقول : تعرفني منذ سنوات عديدة .

لـم أخـبر المحامي بنيتي في التنازل عن الشقة ، قلت لنا لقاء آخر ، قال : غدا . قلت : حاضر .

قـال مؤكدا : نقدم مذكرة عاجلة لوكيل النيابة . وافقته . لا بد من مذكرة عاجلة لوكيل النيابة .

فـرغ حديثنا ، دعتني الدكتورة سلمى إلي فنجان قهوة ، ضحك المحامي ، قال : هذه قهوة بالأمر .

فـي الطـريق ، سألت الدكتورة سلمى مرجان ، عما إذا كانت تحب اللعب مثلي ؟ أخذتني علي قد عقلي ، قالت : طبعا .

قلت : اتفقنا .

تسـير إلي جواري علي رصيف كله حفر لا يتناسب مع منطقة وسـط القاهرة ، ولا يسمح باللعب ، وأكملت حديثها ونحن نتعثر في المشي ، بسبب أكوام التراب والحجارة ، قالت : أنا طفلة كبيرة صدقتها .

اللعـب أهـم مـن قضية المسكن التي ذهبت من أجلها إلي صـديقي المحامـي هذا الصباح . نحيت نزاعاتي مع كمال بك الأغـبر صـاحب العمارة ، ومسألة القتيل الذي وجد مشنوقا في

شـــقتي ، ومجموعـــة الدراسات والتقارير التي أعدها عن محاكم جرائم الحرب ، تركت ذلك كله جانبا ، واشتريت من بائعة الفل وقـــد سدت علينا الطريق بالونة كبيرة منفوخة خضراء مربوطة بخيط طويل ، وأخرى حمراء ، وكبيرة أيضا ، ومنفوخة ، ولها خيط طويل هي الأخرى ، وعشرين بالونة غير منفوخة وضعت بعضها في جيبي وبعضها في حقيبة ورقية .

اشتريت أدوات اللعب . بالونات كثيرة . حسناء تحب اللعب ، يـــا مرحـــبا، نطير البالونات ونجري وننط ساعة أو ساعتين . لنلعـــب بدلا من التفكير في القتيل الذي قضي في شقتي وجرائم شارون .

حديث المشانق وجرائم الحرب لا يناسب شابة حسناء . ولا يصـــح مفاتحة الدكتورة سلمى مرجان في أول لقاء لنا في مسائل تخصـــني ، مثل مسألة شنق ابن صاحب العمارة لنفسه في شقتي أو جـــرائم شـــارون ، المشنوق مصيره جهنم وشارون مصيره جهنم أيضا ، ولا داعي للعجلة .

لـــنؤجل الحديث في أمورنا الجادة ، فهذه ساعة لعب . غدا أشـــرح لهـــا وبالتفصيل الأسباب القانونية لفشل محاولات تقديم شـــارون إلـــي محكمـــة جرائم حرب ، وكيفية التغلب علي هذه الموانع في المستقبل القريب إن شاء الله .

تناولــت الدكــتورة سلمى مرجان البالونتين فرحة ، شبكت خيط البالونة الخضراء بإصبع في يدها اليمنى في رشاقة وكأنها تضع خاتما ماسيا ، وخيط البالونة الحمراء بإصبع آخر . وبدأت فـــي هز يدها ورفعها إلي أعلى ثم خفضها . تطير البالونتين في الهــواء وتحــركهما فوق رأسينا ، تلاعب الصغار في أحضان أمهاتهـــن ، وأولئك الذين يتعلقون بأذيالهن ، بينما حقيبتها الكبيرة معلقة إلي كتفها الأيسر وتبعدني عنها .

بدأنـــا اللعـــب . ولـــم أسأل الدكتورة سلمى مرجان أستاذة الجامعـــة عن سبب معرفتها ببائعة الفل ، وقد قالت لها أمامي : أزيـــك يـــا فاطمة ؟ أجلت سؤالي ، فهذا لا يجوز ، ربما تعرفها بسبب ترددها علي مكتب صديقي المحامي ، وربما تعرفها بسبب حـــبها لعقـــود الفل ، والشيء المؤكد أنها لا تعرفها عن طريق الجامعـــة، فهـــذه الشـــابة لم تلتحق بمدرسة في حياتها ، حبست سؤالي في فمي .

ســـمعت شدو الكلارنيت من الناحية الأخرى من الطريق . زفـــة قادمة . إفراج عن محبوس . حفل ختان . بيع سيارة قديمة بالمزاد . افتتاح محل . وصول عروس إلي الكوافير . المهم زاد طربـــي وزاد الوصل بيننا . لم تعد الحقيبة الكبيرة المعلقة علي كتفها الأيسر تفصلني عنها ، غنيت : يا زمان الوصل بالأندلس .

فاتنـــي مطلع القصيدة الشهيرة ، غنيت ما أحفظه منها وصمتت عما فاتني .

لم تسعفني الدكتورة سلمى وهي شاعرة ببقية أبيات القصيدة وتابعـــت اللعـــب ، وهذا جميل أيضا ، وكنا علي مبعدة خطوات فقـــط مـــن المحـــل الذي قالت إنه يقدم أفضل قهوة كابتشينو في القاهـــرة . التفتـــت إلـــي وقالت مؤكدة : قادم من جنيف وتحب القهوة؟

فاتنـــي ربطهـــا بين حب القهوة وقدومي من جنيف . ربما تتحدث عن القهوة الكابتشينو الإيطالية وهذه لها شأن آخر .

قارنت بين طول قامتها وطول قامتي . رأيتها فارعة القوام. وكنـــت قد رأيتها وهي جالسة في مكتب صديقي المحامي ، ولم الحـــظ طـــول قامتها ومتانة بنيانها وإن كنت قد اكتشفت من أول وهلـــة جمـــال وجههـــا المستدير البض الذي يزينه شعر أسود ، وجمال عينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين .

وافقـــتها ، قلـــت : مـــن لا يحب القهوة في هذه الساعة من النهار ؟

أنا في الحقيقة لا أشرب القهوة قبل الغداء لأسباب طبية ، ومن عشـــاق طعم ورائحة القهوة من بعيد فقط ، بسبب متاعب في المعدة وعـــدم انـــتظام ضـــربات القلب . تمردت علي تعليمات الأطباء ،

واستســلمت إلـــي دعوتهـــا ، فنجان قهوة في صحبة شابة مثقفة لن يــرهق معدتـــي أو يتعب عضلات القلب ، بل بالعكس ، وإذا . . لا سـمح الله ، تناولـت بعضـــا من الحبوب التي احتفظ بها في جيب سـترتي . هذه الحبوب تخفف من آلام المعدة وفيها سلامتي وراحة الــبال ، ومـــن حســـن حظي أنني وضعتها في سترتي قبل مغادرة الفندق.

رحـــب بـــنا جرسون عجوز عرفت فيما بعد أنه يعرف مزاج الدكتورة سلمى ونوعية طلباتها ، وقادنا إلي مائدتها المفضلة وكانت لحسن الحظ خالية من الزبائن .

شـــبكت الدكتورة سلمى خيط بالونة في طرف سكين ، وشبكت خيط البالونة الأخرى في طرف شوكة ، ووضعتهما متقاطعتين علي جانب المائدة ، وسندتهما بيدها اليمني . راحة بيضاء لدنة لا تعرف قســوة شـــغل المطبخ ، وأصابع طويلة تنافس أصابع عازفي البيانو وعازفي آلة الشيللو في الطول. قلت الدكتورة سلمى عازفة بيانو .

استرحت لهذا الرأي ، وأنا لي أوهامي الخاصة وغير الصحيحة حـــول هيـــئة ومظهـــر المشتغلين بالموسيقي من الرجال ، فما بالنا بالمشـــتغلات بالموســـيقي منهن ، والنساء عادة مصيبتهن أعظم فيما يتعلق بالمظهر ، وخلاصة رأيي الذي لا أجزم بصحته ، يتلخص في أن معظـــم العازفين المهرة في العالم بهم داء قلة العقل ، حتى يبين

العكس.

ولهذا السبب توسمت في صديقتي الدكتورة سلمى مرجان عرق عبط بسيط بسبب طول أصابعها فأنا لا أجزم إذا كانت تعزف علي آلـــة موسيقية أم لا . وعرق العبط هذا سوف يقربني منها ، فأنا بي أيضـــا عـــرق عـــبط بسبب اهتماماتي الموسيقية والسياسية ، وليس بسبب طول أصابعي ..

ربمـــا تعزف الدكتورة سلمى مرجان علي آلة موسيقية ، البيانو مثلا أو الشيللو ؟

تركتها تلعب بالبالونتين ، وأجلت سؤالي الذي رأيته تافها وليس مهما ، فما فائدة العزف علي آلة موسيقية ؟ بمقدوري سؤالها بطريقة غير مباشرة عن أحب الآلات إليها لكنني لم أفعل وأجلت سؤالي عن الموســيقي كما أجلت سؤالي عن سبب معرفتها بفاطمة بائعة الفل ، واكتفيت بسماع النغمات الناجمة عن حركة البالونتين .

يكفي هذه الحسناء أنها تجيد كتابة قصيدة النثر ، وحاصلة علي شـــهادة دكـــتوراه فـــي سن مبكرة . قرأت لها قصيدة نثر في العام الماضـــي وأعجبتني ، وضايقني أنني لم أشر إلي تلك القصيدة أمام صـــديقي المحامـــي الذي ربما لا يعرف أنها شاعرة . إشارتي إلي قصيدتها ربما أسعدتها . وأجلت حديثي عن قصيدتها إلي وقت آخر، فموضـــوع قصيدة النثر معقد وكله مزالق ولا يصح فتحه في مكتب

محام أو في كافيتريا .

سألتني : متي قدمت من أوربا ؟

قلت : منذ أربعة أيام .

تعجبت من قولها أوربا بينما هي تعرف أنني قادم من جنيف . سألتني في سذاجة وكأنني رحالة في بلاد الله ، أو ابن بطوطة زمانه، وفي الحقيقة أنا أعيش في جنيف ولا أغادرها بسبب كراهيتي للسفر . هل تظن هذه الشابة أنني أمرح في البلدان الأوربية ؟

لماذا لم تقل مباشرة جنيف ؟ هذه من علامات عرق العبط. الحمد الله . اتفقنا . عرق العبط ظاهر للعيان . ولا بد أنها عازفة بيانو وشيللو وقانون ودربكة وطبلة وشخاليل أيضا .

سألتني الدكتورة سلمى : كيف رأيت القاهرة بعد سنوات الغياب؟

ابتسمت . قلت : القاهرة كما هي ، لا حروب تغيرها ولا سلم يغيرها ، ربما زحامها زاد .

هزت رأسها .

تركت السكين والشوكة أخيرا . نسيت لعبتها . تركت البالونتين في حالهما معلقتين كما هما ، وأنزلت يدها المفروودة علي المائدة وغيرت من وضع حقيبتها والتفتت إلي . هل ضايقتها بتأمل يدها والنظر إلي أصابعها ؟ لا أظن .

البالونــتان معلقــتان وســاكنتان ولا تهــتزان إلا عــند مرور الجرســونات أو خروج الزبائن . ساورني هدوء عجيب ، لا أعرف ســببا له ، ربما بسبب السكون الذي يحل بالكافتيريا وقلة الزبائن . وغمرتني راحة مع سكون البالونتين .

طــبعا نظراتــي الطويلــة لــيدها وأصابعها لم تضايقها. امرأة ناضجة. عاقلة . ربما يزعجها التحديق في جيدها الطويل أو صدرها البارز. سلمى مدرسة جامعية وليست مراهقة في مدرسة ثانوية ، وإذا قلــت لها : هاتان اليدان مخلوقتان لعزف البيانو أو آلة الشيللو، لوافقتني ، وربما أعطتني إياهما لأقبلهما ، لكنني كنت قد تأملت حتى هذه اللحظة يدها اليمنى فقط، ولم أدرس تفاصيل يدها اليسرى فربما بهــا عيــب يمــنعها مــن العزف ، وهذه أمور يعرفها المشتغلون بالموسيقي .

سكتت .

أســقطت حكاية العزف هذه بعد أن فحصت راحة يدها اليمنى وأصــابعها الطويلــة ، ولم أسألها عما إذا كانت تعزف شيئا أم لا ؟ حب هذه المرأة للموسيقي ظاهر ، وقد عزفت في الطريق وأسمعت. مــن يكتب الشعر عاشق للموسيقي بالفطرة ؟ فما بالنا بقصيدة النثر التــي موســيقاها خفية وبعيدة عن القافية الظاهرة ، وفي حاجة إلي حس مرهف للضم نغماتها ومقامتها الملغزة .

وكذلــك رأيــت من نافلة القول سؤالها عما تحب من موسيقي شــرقية وغربــية ؟ لا بــد أنهــا تحب الكثير الذي يتعذر حصره ، فالموســيقي مــن مكونات الشعر ، أما حكاية العزف ، فهي سخيفة ومملة ولا ضرورة لها ، الدكتورة سلمى ليست كالبنات اللاتي يدعين أنهن كن يعزفن علي البيانو في صغرهن علي يد أستاذ في أكاديمية رومــا ، بينما معظم مدرسي بنات الباشوات كانوا من عازفي شارع عماد الدين ليلا ، ولي حكايات معهم .

جاكــت خفــيف فستقي اللون مفتوح فوق بلوزة مزينة بنقوش ترمي عليها شالا أحمر ، وتحاشيت تأمل العنق الطويل ، أو النظر إلــي ثــراء الصــدر ، وإن كانــتا عيناي تتعلقان بعينيها الواسعتين وشــفتيها المكتنزتيــن دون قصــد ، وشغلت فقط بتأمل أصابع يدها اليمنــي ، فــيد المرأة فيها أسرارها ، وكنت قد قرأت شيئا من هذا القبــيل فــي ســنوات شبابي ، وأصبحت علي دراية بخطوط الكف وتقاطعاتهــا إلــي غير ذلك من تخاريف ، وأعتبر ذلك كله من قبيل التسلية .

هــل تغضب حضرة الدكتورة سلمى إذا رأيت أن تطلعني علي خطــوط يديها ؟ خاصة يدها اليسرى التي لم أرها حتى هذه اللحظة، لتكــتمل غرابة يومي بقراءة خطوط كف امرأة في كافتيريا في باب اللوق بعد الظهيرة بقليل ، بعد أن كنت غارقا حتى شوشتي في الأيام

الماضية بالقتيل الذي وجد مشنوقا في غرفة نومي .

لكــن هــذه هــي القاهرة ، هزلها يتغلب علي جدها في أحلك الأزمات. توجهت في صباحي إلي المحامي لأسأله في بعض النقاط القانونية التي تتعلق بهذا الأمر الجلل ، ولأخبره بمخاوفي وهواجسي ، وبمــا وقع لي في اليومين الماضيين مع صاحب العمارة ، وأحدثه عن مجموعة تقارير تخص المحكمة الجنائية الدولية وتعذر محاكمة شــارون أمامهــا حالــيا ، ومجموعة تقارير عن جرائم حرب في الأراضــي المحــتلة ، ثم انتهى بي الأمر إلي الجلوس في كافتيريا لأقرأ الطالع لشابة حسناء ، بدلا من الذهاب إلي النيابة العامة.

طاوعتها ونسيت قضيتي والقتيل والنيابة وما قدمت من أجله .

أحــب الحلويــات في هذه الساعة من النهار في القاهرة . وإذا فاتتنــي ، أندم عليها ، وأقول لماذا تحملت مصاريف السفر وقدمت إلــي القاهــرة ؟ وأجيب علي تساؤلي بالفم المليان : قدمت من أجل طبق أم علي ، وطبعا هذه الرغبة الجارفة بسبب عرق العبط .

لــن أقــول لها إنني أعشق أم علي قرب الظهر وفي العشية . وهــذا الطــبق لا يقدم بهذه الحلاوة إلا في القاهرة المحروسة أو في الإســكندرية ، علــي الرغم من كثرة المحلات التي تسعى إلي تقديم هذا الطبق في المدن الأوربية في السنوات الأخيرة .

وجــاء الجرسون العجوز يحمل فنجاني القهوة الكابتشينو، وإلي

جانـبهما طـبقا أم علـي ، ضحكت من قلبي ، جاء الرجل النوبي العجوز بالطلبات من نفسه . قهوة بالأمر ومعها طبق أم علي بالأمر بسبب تبدل الحال في القاهرة.

قالـت الدكتورة سلمى ، عم أحمد يعرف مزاج ضيوفي . قلت مـن كـل قلبي ، وفرحتي ظاهرة بطبقي المفضل : أهلا عم أحمد . فهذا طبق أم علي محترم بالسكر والمكسرات. هذا الطبق مرادي من القدوم وبغيتي .

بعد غياب الجرسون سألت الدكتورة سلمى عن سبب حبها لهذا الطبق الذي عادة ما ترفضه النساء بسبب إفساده للرجيم .

ضـحكت من حكاية الرجيم هذه ، قالت إنها تحافظ علي وزنها بكـثرة الحـركة ، وليس الرجيم . وقالت إنها لم تتبع رجيما قط في حـياتها. ووزنها يناسبها بغض النظر عن ضرورات الموضة ، وإن المـرأة الشـرقية تمـيل عادة إلي السمنة ، هذه طبيعتها ، وهذا لا يضايقها البتة ، والرشاقة الزائدة لم تكن في يوم ما حلمها .

حدثتنـي الدكـتورة سـلمى بعد فترة صمت ، قالت إن عملها الجامعـي يـبعدها عن كتابة الشعر ، وهذا يضايقها ، وبان الضيق علي وجهها بالفعل . صدقتها . انتظرت سماع المزيد ، لكنها توقفت عـن الحديـث عن الجامعة وعن الشعر وعن هذه الكافتيريا الجديدة وعـن عم أحمد الجرسون النوبي . توقفت عن الكلام ورأيتها تميل

إلي البدانة بما يتناسب مع طولها الفارع .

فـــارق العمر بيننا يزيد عن خمسة وعشرين عاما علي الأقل ، وشـــيخوختي تفضحني ، ولا بد أن أمزجتنا مختلفة ، ورأيت توخي الحذر وعدم سؤالها عن طبيعة قضيتها التي زارت من أجلها صديقي المحامـــي. ربمـــا هـــي قضية نفقة وهذه مسألة شديدة الخصوصية ومخجلـــة أيضـــا ، وبعدهـــا راودتني ظنون بأن سلمى لم يسبق لها الـــزواج من أصله ، ففي طريقة حديثها براءة وعفوية تفتقدهما عادة المطلقات من بنات جيلها، قلت : قضيتها تتعلق بترقية مغتصبة.

مع توقف الدكتورة سلمى عن الحديث ، تأكدت أنها لا تميل إلي السـمنة فقـط، بل هي بدينة بعض الشيء ، ولا ينفع معها رجيم ، وربمـــا يفـــيدها العلاج الجراحي ، وعموما المسألة لم تكن واضحة بالنسبة لي : قضية نفقة أم ترقية ؟ وعادة السمنة تأتي بعد الطلاق .

معظم النساء اللاتي تعرفت عليهن في مصر بدأن حديثهن معي بشـــكوى عابرة عن : سوء الأحوال الجوية. حادثة عربية. قطع خط التليفون. غش الجزار. انفجار ماسورة مياه. مضايقات بسبب الخروج ليلا. وهذه كلها أمور معقدة وواردة في الحياة ، ولا حلول عاجلة أو غـــير عاجلـــة لها عندي ، وربما مسألة انفجار ماسورة المياه وغش الجزاريـــن أقل هذه المشاكل تعقيدا ، ولهذا اعتبرت قضيتها معقدة . بل واحدة من أشد المسائل تعقيدا ، لأنها تتعلق بترقية أو نفقة .

ابتسمت .

حديثنا في المرات القادمة عن الترقية أو أمور النفقة ، ما دام الحديث عن الرجيم لا يروقها ، وضحكت ضحكة عالية ، وشاركتني الضحك ، وبعدها سألتني : لماذا كان السفر ؟ قلت مخفيا عنها أسباب سفري : هذه واحدة من حكاياتي .

تركت حكاية السفر وسألت : تمتلك حكايات كثيرة ؟

قلت بالفم المليان في عبط : جعبتي مليئة.

قالت، إنها لا تمل من سماع الحكايات. وبينما يدها اليمني فوق المائدة ويدها اليسرى إلي جوارها تحت المائدة ، اقتربت بوجهها مني ، وقالت : كلي آذان .

سألت : حكايات الرحيل أم الغربة ؟

قالت في خبث : حكايات القلب والعقل. وبغمزة من عينها اليسرى هذه المرة باحث ، امرأة تطلب المعرفة ولن تتوقف عن الأكل من شجرة الخير والشر حتى إذا كان ثمن فعلتها الطرد من الجنة . امرأة تسأل عن حكايات القلب والعقل بغمزة عين ، لن تتوقف عن السؤال .

أحدثها عن تأميم قناة السويس أم هزيمة ١٩٦٧ المدوية ؟ أروي لها حكايات الماضي أم تصوراتي عن القادم من أيام ؟ هذا هو السؤال ؟ والحكاية كالحة من أولها ، بدلت وغيرت . . والقص كله

مسالك ، وكلما توغلت في الرواية ساورتني ظنون بأنني عدت أرى بعينين أكثر اتساعا ، وأصبحت أسمع بأذنين سليمتين ، وأتبدل بتبدل شخوص حكاياتي .

رأيــت نفســي في حلة أخرى ، تارة أكثر شبابا ، وتارة أكثر كهولـــة ، وتبينــت أن كــل مـــا اعتقدت بكذبه في سابق أيامي كان صـــحيحا ، وأن معظــم أوهامي كانت حقائق ، واختلطت أوراقي . تذكــرت بائعـــة الفل ، وتأملت بسمتها ، وسمعتها تقول : الفل لأهل الفـــن ، ولم ألتفت إلي الوراء أو أنظر إلي مدخل الكافيتريا . اكتفيت بســماع صـــوتها ورؤية بسمتها بعين خيالي؟ ماذا تفيد رؤية جسدها الممشوق ، وأنا في حضرة أستاذة جامعية ؟

قالت سلمى : الحكاية الأولي يا سندباد ؟

قلت ، الكلام صناعة شهرزاد .

قالت : الفضائيات العربية يديرها رجال.

استسلمت ولم أجادل.

كفــت شـــهرزاد عـــن صـــناعة الحكايـــات في القرن الحادي والعشـــرين ، وتخلت عن حمل سجل الزمان الثقيل ، وهذه مصيبة ، لأغـــرقها فـــي بحوري ، لعلها تقب ذات ليلة وفي جعبتها حكاية من أجلي أنا .

مـــع رشـــفات القهوة ، وقد زادت سرعة نبضات القلب ، وقد

زودنـــا عـــم أحمد الجرسون بها فنجانا وراء آخر ، غرفت من بحر أوراق قديمـــة ، وسقيت الأميرة ، وفعلت مثل الفضائيات العربية ، زورت تاريخـــي الخاص ، وبدلت في تاريخ البلد ، وزورت تاريخ العالم .

جلســـت فـــي مواجهـــة ذاكرتي المعبأة بتفاصيل الأحداث التي خـــبرتها مـــثل حـــروب ١٩٤٨ و١٩٥٦ و ١٩٦٧ و١٩٧٣، وتلك الجـــرائم الأخـــيرة التي سمعت بها أو قرأت عنها أو شاهدتها علي شاشات التليفزيون في جنين ورام الله وخان يونس وغزة .

ولأن حاضـــري بـــه الكثـــير من الدم المسفوك والماء الآسن ، نظـــرت إلي قاع البئر أنبش عن جواهري وأبحث عن دعائم عمري فقبضت علي الكثير من الصدف والرمال والدم المسفوك والقليل من الجواهر .

رتبت وقائع حكاياتي من جديد .

طوال حياتي لم يكن يشغلني الهرب إلي الأمام أو الخلف ، بقدر مـــا كانـــت تقلقنـــي ساعات النهار والليل ، التي هي ساعاتي أنا ، وليســـت ســـاعات الآخريـــن . ورتبت بعضا من حوائجي في وقت مـــبكر، بعضــــها وضعته في دواليب ، وبعضها خبأته في ملفات ، وبعضها رددته في الحمام ، وبعضها وهو الأهم نسيته عن قصد .

أدخلـــت في البداية بعض المحسنات . وكانت هذه هي خطوتي

الأولـــي علـــي درب الخديعـــة والـــتزوير من أجل الأميرة . رأيت الدكـــتورة ســـلمى مرجان في العتمة وتحت ضوء الشمس ، وسألت نفسي ماذا أسمعها ؟

ومـــع رشفات القهوة في هذه الكافتيريا ، تعرفت علي الدكتورة ســـلمى مـــرة ثانية . ولهذا سألتها بعد تناول ثلاثة فناجين قهوة وأم علي، أن تأتي معي إلي زيارة فنان من أحبتي ، مرسمه علي مقربة مـــن محطـــة باب اللوق لنكمل حكاياتنا، وأتذكر ما نسيته ، قالت : حاضر . وجمعت أشياءها . حذرتها ، قلت : هذه زيارة إلي فنان من قرن ماض . وفي الحقيقة كنت أحذرها من بئر ذكرياتي الذي تركته عنده .

زعمـــت أنهـــا تنتسب إلي القرن السابع عشر. وغمزت بعينها وهـــي تميل برأسها قليلا ، ولم يفتني مقصدها ، فالقرن السابع عشر شـــهد مولد حركة التنوير وفصل الدين عن الدولة ، وهذه مسائل لم أقصر في فهمها في السابق أو الحاضر ولها مكانة في بئر أيامي .

ذهبـــت إلي الحمام وأكملت زينتها ، وعادت وقد فردت شعرها ورفعـــته عالـــيا ، ووضعت بعض المساحيق الخفيفة علي وجنتيها، قالـــت : سيارتي قريبة . اقترحت الذهاب سيرا علي الأقدام ، خوفا من عدم وجود مكان للسيارة في شارعه الضيق ، قالت : حاضر .

قـــبل قيامنا ، سألتني ، نأخذ البالونتين أم نتركهما معلقتين هكذا

علـــي المائدة ؟ ليلعب بهما الزبائن . ضحكت . بالونات كثيرة غير مـــنفوخة فـــي جيبـــي وفي الحقيبة الورقية ، قلت : نترك البالونتين للزبائن . قالت : طيب .

٢
- الوهم -

فـــي طريقنا إلي المرسم ، رأيت بائعة الفل ترمح ناحيتنا وكأنها امتلكــت هــذه الناصـــية وتديــرها لحسابها . هذه ليست بائعة فل وبالونـــات، هذه مالكة منطقة وأينما وليت رأيتها أمامي . تريثت في السير حتى أقبلت بطلعتها الزاهية ، سألتها أين البالونات ؟ ابتسمت ، وقالـــت : طارت يا بيه ؟ وعرضت علينا عقود الفل التي تلفها علي يدها ، ولسانها لا يكف عن الدعاء للدكتورة .

اشتريت سبعة عقود من الفل الأبيض الجميل بدلا من البالونات، هـــذه تميمتـــي . ســـبعة عقود فل ، تميمة تصد العين السيئة وتمنع الحسد.

سألتني الدكتورة سلمى ، لماذا سبعة ؟

قلت لها بالإنجليزية هذه تميمة . ضحكت واهتز جسدها ، توقفنا عن السير بسبب الضحك ، قالت : بدأنا القص من بابه الواسع .

قلت : نعم .

عقــود الفــل لهــا رائحة طيبة ، توقفنا ، ومالت بجذعها كله ناحيتي، وأحنت رأسها ، ووضعت عقود الفل حول جيدها ، وكأنني ألبسها تاج الملك أو الإمارة ، قالت : شكرا .

صارت أميرتي متوجة بالفل .

وبين مشقة السير علي الرصيف وبين النزول إلي نهر الطريق بسـبب المطبات ومواسير المياه المكسورة ، كنت آخذ يدها اليسرى التــي لــم أرهــا في قبضتي . لمست وحمة كبيرة في ظهر يدها . تفاءلـت . الوحمــة فــي ظهر اليد اليسرى نذير ثراء . وفي أقوال أخــري علامــة طيب القلب . قلت : أتأمل راحة يدها اليسرى فيما بعد.

الســير في شوارع القاهرة أصبح في صعوبته مثل تسلق جبال الألــب فــي حاجة إلي عصا . وبسبب المطبات والحجارة ، نسيت الوحمة التي في يدها اليسرى ، وندمت لأننا تركنا السيارة .

عند إشارة مرور توقفنا .

الشــمس حامــية وتسـقط علي وجهينا وتغطي جسمينا بزاوية عموديــة ، وقد قصرت ظلالنا ، وأصبحت مساخيط تتعلق بأحذيتنا فقط .

الشمس التي بزغت فجأة بعد أن كان الجو يميل إلي الغمام قلبت

حالـــي . ســطعت بقــوة . انعكست أشعتها علينا . توهجت ملابس الأمــيرة . الفســتقي صار أزرق مثل لازورد . في البداية خفت . بعدهــا تــأكدت . نقــوش ملابسها قارب رع . سفينة الصعود إلي السماء، ماذا أفعل ؟

أمسكت بيدها ، ثم بعدها لففت ذراعي حول ذراعها وأخذتها في حضني ، وكنت خائفا .

تركتني وهي تبتسم أفعل بذراعها ما يروقني . عبرنا الطريق ، سرنا تحت أسقف عمارات عالية حجبت عنا الشمس . تركت ذراعها وابتعدت عنها . كتمت سري ، ولم أصارحها بمخاوفي . لم أقل لها خفــت أن تطــير مــع أشعة الشمس الذهبية . لم أقل لها أن نقوش ملابسها قارب رع .

هكــذا أصــبحت الحكايـــة أكثر تعقيدا بعد ساعات من لقائنا ، تشــعبت الدروب بي واختلطت المسالك وغلبني الوهم . هذه الشابة التـــي لا تلقــي بـــالا إلي تقلبات الموضة ولا تهتم بقواعد الرجيم ، وتضع الحلق في حقيبتها بدلا من أذنيها ، تمتلك سرا ما . .

الفل يزين جيدها . ورأيت عقدا يتدلى علي صدرها لم أره عند جلوسنا في الكافتيريا ، أو عند وضع عقود الفل حول رقبتها بيدي ، قلت : أميرتي ساحرة .

ســرت إلـــي جوارهـــا مهموما وقد ثقلت مخاوفي وزادت عن

قدرتـــي علي احتمال مكاره جديدة . ألوان ملابسها طلاسم وتعاويذ . وإذا أردت إنقاذهـــا ، لا بد من حرق ملابسها ، ونزولها عارية في النيل لتغتسل .

عزمـــت علي حرق ملابسها ، مهما كلفني ذلك من مشقة ، أما مســـألة نـــزولها عاريـــة في النيل لتغتسل فقد أجلتها بعض الوقت ، بسبب تقلبات الجو وبرودة المياه في الليل ، لأنها طبعا لن تنزل في النيل عارية في النهار .

تعرية أميرتي لم يكن هاجسي في تلك اللحظة من الساعة الثانية عشـــرة ظهر يوم الأربعاء الموافق الثاني عشر من إبريل عام ألفين واثنيـــن ، وإن كان قد أصبح هاجسا ملحا بعد ذلك لأسباب أخري ، ففـــي ذلك اليوم ، الساعة الواحدة بعد الظهر ، وليست الثانية عشرة ظهـــرا ، بســـبب فروق التوقيت بين القاهرة وجنيف ، كنت مشغولا بحرق ملابسها أكثر من انشغالي بتعريتها .

اقتربنا من العمارة القديمة الأثرية التي يقطنها صديقي الرسام ، وبـــدأت ظلالهـــا تغمرنا ، روائح القدم وتيارات الهواء البارد تهب عليـــنا من الشارع الضيق ، أشرت بيدي إلي أعلى ، وقلت للدكتورة سلمى : تلك هي الشرفة ، في الدور الخامس .

تأملـــت الواجهـــة ودققت في أركانها، ولم تلتفت إلي إشارتي. كانـــت تـــنظر إلي الناحية الأخرى من العمارة البعيدة عن الطريق

العمومـــي، والبعيدة عن شقة صديقي الرسام، حيث شقته تطل علي الطريق العمومي. قالت: عمارة تحفة.

عبرت سلمى الطريق ووقفت علي الجانب المقابل تتأمل طراز البناء ، المقرنصات ، الشبابيك ، أشارت إلي طراز البناء بالفرنسية، وحددت عمر العمارة بحوالي مائة سنة .

وأضـــافت ســـلمى ، إنهـــا سوف تبحث عن تاريخ العمارة في موســـوعة فرنســـية قديمـــة تهـــتم بالعمارات في منطقة باب اللوق وعابدين . ندمت لقدومنا . ماذا أفعل في بندق ؟

رأيـــت أنـــا الرجل الرزين نذر الشر تهب من بير السلم بسبب بـــندق. البحث عن تاريخ العمارة في موسوعة فرنسية قديمة سوف يقودهـــا إلي بندق ؟ وهذه مصيبة . كيف أشرح الأمر ؟ التقليب في أوراق قديمـــة لـــيس ســـهلا ، والتاريخ دوما ملبد بقليل من الحقائق والكثير من الأوهام .

وأمام باب العمارة خشيت عليها من بندق .

أجلت مسألة حرق ملابس الدكتورة سلمى مؤقتا ، إلي حين لقاء صـــديقي الفنان ، هو رجل عنده حدس، وكلماته هي المرفأ ، وبندق من مريديه .

الوحمة التي في يدها اليسرى نتيجة حادث وليست طبيعية . لو كانـــت وحمة طبيعية رباني ، لما اهتمت الدكتورة سلمى بتاريخ هذه

العمارة .

العلاقــة بين وحمة اليد اليسرى المزورة وبين العمارة واضحة مثل الشمس . ضحكت . وهل أنا مجنون ؟ طبعا لا توجد علاقة بين وحمة في اليد اليسرى لامرأة وعمارة متينة .

الرســام الجـيد صــناعته الألــوان ، وصديقي يلون بالأقلام الرصاص . وكنت أعرف طقوسه جيدا . في البداية يصنع لنا القهوة علي مهل . بعدها يخرج أوراقه البيضاء من الدرج . وقبل أن يمسك بالورقة يكون قد تجول في البيت ، وسار في الصالة أمامنا من جهة إلي أخرى ، وأعد شيئا نأكله ، وطوال الوقت يروى لنا شيئا . وبعد ذلك كله يبدأ عمله .

يــتأكد فــي البداية من رغبة الموديل ، واستعدادها للقدوم إلي مرســمه علي الأقل ساعة كل يوم لفترة زمنية طويلة . هذا إذا أراد أن يرســمها ، أما إذا تكاسل عن الرسم ، رجع إلي كاميرا قديمة لا تخونه عدساتها مطلقا ، وهذا ما حدث .

رأيــت الأميرة صباح اليوم تحت عوامل إضاءة مختلفة ، وكما يقــول أهل صناعة السينما ، تحت إضاءة داخلية وأخرى خارجية : إضــاءة داخلية في مكتب صديقي المحامي وفي الكافتيريا ، وإضاءة خارجية في الطريق ، وهذه الأخيرة تغيرت قوتها ، وفقا لمسارنا في مواجهــة الشــمس ، أو ابتعادنا عنها ، وارتفاع العمارات ، واتساع

الطـــريق . وغابــت الشمس عنا بسبب العمارات العالية علي جانبي الطـــريق ، والوقت ساعة ظهيرة ، رأيت ملابسها قاتمة وقد انطفأت ألوانها ، استراح قلبي قبل صعودنا إلي المرسم .

كـــل إضاءة تصنع ظلالها ، وتعيد تلوين الألوان ، وتكشف عن الوجـــه الآخر من الواقع ، وعن زوايا غائبة ، وتبرز ملمس الأشياء بطـــريقة مخـــتلفة وفقا لشدتها ، وقد رأيت وجه الدكتورة سلمى في إضـــاءة خافتة فأعجبني ، ورأيته في ضوء النهار فبهرني . ورأيت ألـــوان ملابســـها في إضاءة خافتة فوجدتها متناسقة شديدة الأناقة ، ورأيتها في ضوء النهار فارتعبت .

ماذا يري صديقي الرسام في هذا الجاكت الفستقي اللون ، وتلك البلوزة الملونة بهذه النقوش العجيبة ، وهذا الشال الأحمر؟ هل يراها كمـــا أراهـــا أنا ضعيف النظر والسمع ؟ لا أظن . تريثت . لأنتظر سماع قوله . فهو رجل صاحب خبرة ، وصناعته النقوش والألوان .

صـــعدت الـــدرج مســـتندا إلي حافة الدرابزين . وهي تسبقني وتـــتوقف . تـــتأمل سقف العمارة المترب ، وتلال التراب التي تحط علـــي بلاطهـــا . تأملـــت قوامها من الخلف ، تضع بنطلونا مناسبا لقوامهـــا ، لا افـــتعال فيه ولا إثارة ، بل يناسب مكانتها ويحفظ لها قدرها ، وسرني ذلك .

هذه صديقتي بحق .

صعدنا الدرج ، تقدمت ناحية الباب ودققت الجرس . وقفت إلي جـواري ، فـتح الباب ، هلل لقدومي ، مفاجأة ، بدأ عتابه ، سألني متي حضرت من جنيف ؟ رحب بنا ، دخلنا ، قلت : الدكتورة سلمى مرجان . قال : أهلا وسهلا . حرك كرسيا ثقيلا ، ووضعه بزاوية ، وطلب منها الجلوس ، لكنها فضلت الوقوف وتأمل اللوحات ، سألني عن صحتي وسألته عن صحته ، قال : كما هي . قلت : هذا حسن . ابتسم .

كـان كمـا تخيلـته مرتديا بنطلونا وقميصا مكويا وعليه بلوفر خفـيف ، ويضع في قدميه الشبشب الذي يضايقه في السير ، ويمنعه من رفع قدميه عن الأرض ، فيتحرك وكأنه يجرهما .

فـنان في جلوسه وفي سيره ، إذا سار لا يرفع قدميه ولا يثني ركبتـيه أو ساقيه . بل يزحف . وفي تجوله داخل الشقة يدور حول قطـع السـجاد والكليم حتى لا تتعثر قدماه ، وقطع السجاد لا تغطي الصـالة الواسعة بأكملها ، بل هي موزعة علي مقربة من الشبابيك الواسـعة ، وتسقط عليها أشعة الشمس . وفي الليل يغير مواضعها ليضعها علي مقربة من مجموعة من الأنوار التي يوزعها في أركان الصالة .

تنبهت وهو يسألني عن فترة بقائي في القاهرة هذه المرة ، قلت شهرا ونصف كالعادة . بان ضيقه ، قال : شهر ونصف مش كفاية .

وتركتنا الأميرة لحديثنا وتوقفت عند بعض اللوحات الزيتية ، وبعض الرسومات بالقلم الرصاص .

تنـــتقل الدكـــتورة سلمى مرجان من لوحة إلي أخري ، بعد أن تمســـك بأجوائهـــا وتفاصيلها ، تقترب من اللوحات وتبتعد كما يفعل أهـــل الرسم . ولم أكن أعرف أنها تهتم بالتصوير من قبل ، فسرني مجيئنا .

انتهـــت مـــن تأملها اللوحات وجلست علي كرسي قريبا مني ، بعيدا عن الشمس الساقطة علي الكرسي الذي أعده لها ، قالت : فنان عظيم .

ابتســـمت . قلت لها : شيئا عن فنه وشيئا عن حياته وشيئا عن صـــداقتنا التـــي تعود إلي منتصف سنوات السبعينات . سألتني عن اسمه ، أخبرتها .

ســـألتها : ما رأيك في رسم لوحة لك ؟ قالت : موديل . كلا . هذا رجل تعشقه أية فتاة . إذا أحبني عشقته لكنني في مقابل ذلك لن اتـــركه يرسمني ، لأنه إذا رسمني سوف يكرهني . يتوقف عن حبه لـــي ويكتفـــي بخطوط جسدي الخارجية في اللوحة . اسألني أنا عن موديـــلات الفنانيـــن وعذابهن . موديلات ماتيس وبيكاسو وسلفادور دالـــي . كلهـــن احترقـــن بنار الهوى في اللوحات ، وعلي صفحات الكتب يا عزيزي .

ضحكنا .

قالـت : فـنان بورتـريه بالقلم الرصاص من الطراز الأول . وقامـت تتأمل صورة لوجه فتاة بالقلم الرصاص . هذه واحدة من أفضـل رسوماته ، كل من يراها يتوقف عندها بسبب الجمال الخفي الذي تبرزه اللوحة . وكنت أعرف أنها سوف تتوقف عند هذه اللوحة وتسأل عن صاحبتها . لكنها لم تسألني عن اسم صاحبتها ، دققت في تاريخ رسمها ، وقالت : رسمها عام ١٩٧٩ ، بعد تعارفكما .

كنت لا أعرف صاحبة الصورة ولا أعرف اسمها ولا ملتها ولا أيـن ذهبت ؟ ابتسمت . سألتني : لماذا صاحبة الصورة لم تأخذها ، قلـت : لا أعرف . قالت : إذا رسمني، سوف أشتري منه اللوحة ، وأضـعها فـي غرفة نومي لأتفرج عليها وحدي ، كلا، أضعها في الصـالة ، وتـتفرج عليها أنت أيضا . لن أترك لوحتي هنا ليتفرج عليها زواره .

حـددت الأمـيرة موضع اللوحة التي لم ترسم بعد ، وصرحت بأنهـا تمنعنـي من دخول غرفة نومها ، ولم يكن في كلامها لؤم أو تلميحات . راقتني براعتها أنا الذي أعد عدتي لسرقة ملابسها .

قال الرسام : القهوة جاهزة والشاي جاهز .

سـار بصـينية إلي مائدة في آخر الصالة . قمنا خلفه . صبت الأمـيرة القهـوة له ولها ، وصبت الشاي لي ، وسألتني : كم ملعقة

سكر ؟ قلت : ملعقتان . سأل : إذا أردت الحليب ، اللبن في الثلاجة. قامـــت لتحضر اللبن . قال : الثلاجة علي اليمين في المطبخ. سألني عن أحوالي . قلت : لا بأس . قال : متي العودة النهائية ؟ قلت شيئا عـــن أحوال البلد وأحوال المنطقة وأحوال العالم ، قال : معك حق . جاءت بالحليب .سألت عن آخر معرض له ؟ قلت : قبل هزيمة ٦٧.

هــزت رأسها . وبينما تشرب قهوتها ، أحضر كاميرا ، وجلس يركـــب فيلما ، قال : هذا فيلم جديد . مدت يدها إلي شعرها بطريقة عفويـــة ، ابتسمت ، وضحكت هي . سألت : أين الحمام ؟ قال : في نهاية الصالة علي اليمين . الحمام الصغير شغال ، أما الكبير معطل ومواسير المياه ضاربة . تناولت حقيبتها الكبيرة وذهبت .

أثـــناء انشغاله بالكاميرا ، قال : هذه السيدة تفهم في الفن . ماذا تعمـــل ؟ قلـــت : أســـتاذة فـــي الجامعة بدرجة مدرس. سألني عن تخصصها ؟ قلت : أدب فرنسي . قال : تعرفت عليها في جنيف ؟

قلت : تعرفت عليها في مكتب صديق محام منذ ساعتين . قال : مسكينة . عندها قضية . قف معها . قلت : لا أعرف إذا كان عندها قضية أم لا .

قال : طيب .

انـــتهى مـــن تركيـــب الفيلم ، وأخذ في ضبط عدساته . عادت سلمى من الحمام . طلب منها التوقف في نهاية الصالة ، وأن تنظر

إلـــي الشباك . وقفت . قال : تمام . طلب منها أن تبتسم . ابتسمت . قـــال : تمام . طلب منها أن تجلس وتمسك بفنجان القهوة في يدها ، فعلـــت ؟ قال : تمام . طلب منها أن تقف أمام لوحة . وقفت ؟ قال : تمام .

وكلما قال تمام ، كانت تنبعث إضاءة من الفلاش تأخذ البصر . طلـــب منها الجلوس . جلست . أخذ يصور وجهها من كافة الزوايا بعـــد أن غير عدسات الكاميرا ، وبسرعة ودون سؤال . قال : هذه اسكتشات . سألته : صور بالألوان ؟ قال : أبيض وأسود . ضحكنا . فـــتح الكامـــيرا وأخـــرج الفيلم ، قال : الصور بعد ساعتين . سألت ســـلمى عن استديو التحميض . قال : في الحمام الصغير . ابتسمت ســـلمى ، وبان سرور علي وجهها . توقعت أن تسأله عن تحميض الأفلام وطبع الصور . لعبة جديدة بدلا من البالونات . بزوغ الصور فجـــأة تدريجيا تحت مياه الطبع في الأطباق فيه إثارة . عملية خلق . لكـــنها لـــم تلق بالا إلي عملية التحميض أو الطبع . أميرتي تفضل اللعب بالبالونات .

في سنوات بعيدة من ربع قرن ، قبل سفري ، وقفت إلي جواره وهـــو يحمـــض أفلامـــه ، لكنني نسيت تفاصيل تلك العملية مع كر السنين ، ولم تشدني إلي تعلمها ، وكل ما أذكره أن عملية التحميض لا تـــتم إلا في بحر من العتمة الثقيلة ، وتستغرق نصف ساعة علي

الأقل .

تجلس الدكتورة سلمى قريبا مني . تستند إلي ظهر المقعد ، وتضع ساقا علي ساق ، وتميل برأسها ناحيتي صامتة ، نظرت إلي عنقها وجدت عقود الفل حول عنقها وموزعة علي صدرها . لم تتخلص من عقود الفل قبل التصوير . وسرني ذلك ، ربما كان من الأفضل أخذ بعض الصور بعقود الفل وبعضها بالعقد الثمين الذي كانت تلبسه عند قدومنا ، لكنها تخلصت منه ، وتركت عقود الفل تزين جيدها .

سألتها : هل تخاف العتمة ؟

مدت يدها وأمسكت بيدي وابتسمت . تجاهلت سؤالي وقالت : الآن لست خائفة . وكان ذلك بينما صديقنا يدخل ويخرج ويعد لوازم التحميض . لمبات حمراء . أطباق . محاليل . أوراق . مقصات . حبال . مشابك غسيل . ستائر سوداء .

وقبل أن يغيب عنا كلفنا بجمع رمان بلي من تحت الحيطان ، قال : رمان بلي ملون . . وأشار بيده إلي حجمه ، قال : مثل الحرنكش .

قمنا نبحث عن رمان البلي في أركان الشقة ، وجدنا بعضا منه. سألتني الأميرة : لزوم التحميض وطبع الصور. لم ابتسم ولم أجب علي سؤالها . انهمكت في البحث عن رمان البلي ، ونحيت هذه

المسألة من ذهني . سألت سلمى صديقي عن العلاقة بين رمان البلي وتحميض الأفلام. نظر إليها نظرة ودودة ، وقال : لزوم اللعب .

ننحني ونميل ونجلس علي ركبتينا لتناول رمان البلي . تعبت . توقفت . كانت في يدي كبشة من رمان البلي . قال : تمام .

عبر صديقنا الصالة الواسعة وفي يده كبشة رمان بلي ثم وقف فـــي الطـــرقة ، ورمى رمان البلي ، بعدها توجه إلي غرفتي النوم والمكتب ، وفعل ذلك . ونسمع صوت رمان البلي وهو يتدحرج علي الأرض قبل أن يستقر .

جمعـــنا رمـــان البلي من الصالة الواسعة ليوزعه علي الطرقة وغرف النوم والمكتب . نظرت إلي أميرتي في دهشة ، تطلب شرحا لمـــا يـــدور حولنا . نكد . ننحني . نجمع رمان البلي ، ثم يرميه في موضع آخر ، لماذا ؟ تساؤل مشروع وتوقعته منها ، لكنني خذلتها، صمتت مثل أبي الهول . حولت رأسي ولم أنطق بكلمة .

رجـــل يضـــع رمان البلي عند أركان الغرف وقرب الجدران ، هذا شأنه . هذا بيته ومرسمه ، هو حر . نحن ضيوف ، ما لنا به ؟

إذا ســـألتني الدكتورة سلمى ثانية زجرتها . رمان البلي يخصه وهـــذه مســـألة شخصية ، ولا شأن لنا بها . كل منا له خصوصياته التـــي لا يجـــوز التعليق عليها ، هو حبيبي منذ أكثر منذ ربع قرن ، وصـــداقتي لا تمنحني حقا في ملاحقته بالأسئلة لمعرفة أسبابه ، هو

حر : يضع رمان البلي قرب الجدران وتحت وسادته وفي الثلاجة ، لا شـأن لنا به . كل منا له رمان البلي الذي يلعب به . أنا مثلا في جيبـي أكـثر من خمسين بالونة غير منفوخة ، ولم ألعب بها بعد . اشـتريتها لألعـب بها وأطيرها ، هو يلعب برمان البلي وأنا أطير بالونات في الهواء وأجري وراءها ، ما الفرق ؟

الدكتورة سلمى مرجان كانت أشد فطنة مما توقعت وفوتت علي فرصـة الشجار . تركت المسألة وتنازلت بإرادتها عن الفهم ، بينما التـنازل عـن الفهـم ليس سهلا ، وأنا من مصائبي أنني في معظم الأحوال لا أتنازل عن الفهم ، لكنها فعلت ؟

ألغـت الدكـتورة سلمى عقلها وتنازلت عن الفهم وهي المرأة الذكـية مـن أجلـي . لم تسألني عن سبب توزيعه لرمان البلي في الشـقة. لـم تلح بنظراتها أو حركات يدها ، والنساء لهن وسائل لا تخطـر علـي بال الجن الأزرق عندما تعوزهن المعرفة . يوجهن أسـئلتهن بحـركات الأيـدي ونظرات العيون وهز الحواجب ، أما أميرتـي فقـد تركتنـي في سلام . تجنبت الخوض في هذه المسألة الغريبة ، وقد سرني ذلك . ومن باب الحيطة لا أكثر أو أقل ، رأيت أنها ربما قد أجلت التحقيق مؤقتا في المسألة .

هل تنسي امرأة ما يشغلها ؟ لا أظن .

يبدو أن سلمى قد ساورتها شكوك من ناحيتي ، وفهمت من شدة

ارتباكي أنني أشاركه هذه اللعبة السخيفة لسبب ما ، علي الرغم من أنني عانيت من جمع رمان البلي وقطع نفسي وتصببت عرقا . المهم أنها ابتعدت عنها بإرادتها ودون ضغوط مني ، وتركتني في همي ، وكـــان مســـلكها طيبا لأنها أعفتني من الكذب والبحث عن مبررات غبية في محاولة فاشلة لتبرير ما لا يمكن تبريره . وهل يتيسر لأي واحـــد مهما كان متعلما حل هذه المسألة الغريبة ، في كلمات معقولة دون كذب ؟ كلا .

ابتعدت الدكتورة سلمى عني وجلست في ركن معتم من الصالة علي الأرض وحيرتها ظاهرة ، تتأمل جدران الشقة والأثاث والسجاد القديم . تربعت علي الأرض مثل فلاحة وشغلت نفسها عني . تتشبث في جلستها بالأرض ولا تكف عن لمس الأشياء ، تبحث عن ركيزة لتســتند إلــيها ، تميل ، تحرك رأسها وتمد يدها وتمسك بالأشياء . تناولــت طرف سجادة ، وأخذت تفحص العقد ، قالت : سجاد قديم . قلت : من مجموعة نادرة ، حصل عليها في الخمسينات كما أعتقد .

كنت أظن أنها قد نسيت المسألة ، لكنها كانت تفكر فيها ، وهذا يتســق مـــع طبيعتها وشخصيتها ، بالإضافة إلي أنه من المنطقي أن تفكـــر فيها ، وبعمق أيضا ، لأنها إذا كانت قد نسيتها بهذه السرعة يكــون ذلـــك ملفتا للنظر وليس منطقيا علي الرغم من عرق العبط، وكـــان حديثنا عن السجاد من قبيل الثرثرة الفارغة ، فالمرأة لم تعد

تقف علي أرض صلبة . انهار عالم ظننته في البداية يخصها قبل أن تمسك به .

جدران تهتز بقوة ، وصليل ترام ، وضجة طريق ، وحبات بلي تتدحرج بمفردها . تزلزلت الأرض . توجهت بعينيها ناحية الدواليب لتـــتعلق بهـــا ، قالت : أثاث قديم . هبت فجأة ، وصاحت : ساعات جيـــب قديمـــة . هـــذه تحف . قالت ذلك ، ولم تمد يدها وتفتح دلف الدواليب الزجاجية .

راقنـــي مســلكها وأحسســت بخوفها . ويبدو أنها لم تقو علي الوقــوف فأســرعت للجلوس علي الأرض . الكراسي لم تعد توفر الآمــان ، تجلس وتميل بفخذيها وتلمس بهما الأرض ، تثبت فخذيها فـــي الأرض ، لعلهـــا تلتصق بها . كنت أعرف ، وقلت : هل رأت الدكتورة سلمى شيئا بعد ؟ وكنت شريرا وضحكت .

حســناء علـــي هـــذا القـــدر من الخوف من يجدها ؟ أحببتها ، ونظـــرت إلي ساعتي وراعيت فروق التوقيت، وكانت الساعة الثانية إلا ربعا ظهر يوم الأربعاء الثاني عشر من إبريل عام ألفين واثنين .

مـــن قبيل تضييع الوقت ، سألت الدكتورة سلمى عما إذا كانت ترغب في مشاهدة عملية تحميض الفيلم وطباعته في العتمة ؟ قالت: عملية التحميض سخيفة . وإنها ربما تتابع عملية طباعة الصور . لم أســألها شيئا آخر عن التصوير أو الرسم ..تركتها في حالها وشغلت

بسماع مجموعة أصوات خافتة تأتي من الغرف المغلقة . أشياء صغيرة تصطك وترتطم ببعضها . رمان البلي يتدحرج وحده في الغرف المغلقة . صوته واضح . أدقق السمع . أميزه عن ضجة الترام ونفير السيارات وزعيق الباعة . تهتز جدران العمارة القديمة مع سير عربات الترام وسيارات النقل الضخمة . يتدحرج رمان البلي ويصطدم ببعضه . حبات البلي لا تسكن في مواضعها .

ومع تدحرج حبات البلي في الغرف المغلقة ، بدأت الدكتورة سلمى تتقلب وتغير موضعها ولا تهدأ في موضع ثابت . تقعد . تقوم. تقترب من النافذة ثم تبتعد عنها وتتربع علي الأرض . تسقط أشعة النهار الذهبية علي ملابسها . تتوهج ألوانها . يحترق قلبي .

طلبت منها خلع الجاكت ، خلعته ، رمته علي حافة الكرسي . بلوزة لها أكمام قصيرة جدا ، تكشف عن ذراعين بضتين ممتلئتين ، وفتحة صدر محتشمة ، ألوانها تضيء وتخطف العينين .

سحبتها من يدها بعيدا عن أشعة الشمس الساقطة من النافذة ، تبعتني ، قلت : نجلس هنا . بعيدا عن الشمس . طاوعتني . أخاف أن تطير من النافذة ، وتصعد مع أشعة الشمس . سألتني متعجبة : تخاف علي من حرارة شمس الشتاء . قلت : نعم . قالت : أنا أحبك. لم أقل شيئا . كنت أعرف أنها تداعبني بكلمات لطيفة لا أكثر .

كنت مشغولا بكيفية حرق ملابسها حتى لا تطير من النافذة

وتسرقها أشعة الشمس ، وزاد صمتي .

سألتني وهي تلتفت إلي غرفة•المكتب المقابلة للصالة والتي تفصلها عنا طرقة صغيرة ، قالت : هل تسمع شيئا ؟ قلت : صوت الترام . قالت : لا أقصد الترام ولا السيارات ولا زعيق الباعة . كنت أعرف ماذا تقصد ؟ لكنني تجاهلت سؤالها . قلت : لا شيء آخر . الشقة هادئة . أليست كذلك ؟

نظرت إلي الدكتورة سلمى في توجس في البداية وجسدها ينتفض . ثم رشقتني بنظرات متوحشة بعينين واسعتين مفتوحتين علي آخرهما ، سددت إلي نظرات قاتلة ، وبعدها تساءلت : نبيل سعيد يكذب علي الأميرة ؟ هذا لا يجوز.

لم أصمد أمام نظراتها . انهار حائط كذبي . اقتحمت نظرات عينيها المتوحشة سدودي في لحظات . عيناها الواسعتان اللتان كنت أري فيهما الهدوء والصفاء أصبح يتطاير منهما شرر . عيناها تشتعلان بغضب . شفتاها فيهما غيظ .

قلت مستسلما : نعم . أنا أكذب . قالت في غضب : لم نتفق علي الكذب . طوال النهار أطاوعك . طلبت مني القدوم إلي زيارة صديق ، قدمت وأنا لا أعرفه . طاوعتك . وفي النهاية تكذب . تطلب مني أن لا أصدق أذني ؟ كيف وأنا أسمع دحرجة رمان البلي؟ ألا تسمع ما أسمعه . أصبت بالصمم . طرشت فجأة وأنت الذي لم

تكف عن الحديث عن الموسيقي طوال جلوسنا في الكافيتريا .

وقفت في منتصف الصالة ودعوتها للشجار . مددت يدي مستعدا ، وسددت لكمة في الهواء . طلبت منها أن نتشاجر سويا . نصرخ . نسدد اللكمات لبعضنا البعض . نقول : قتيل أو حريقه أو حرامي . بصوت عال جدا حتى نجمع الجيران ويلحق بنا البوليس .

ضحكت الدكتورة سلمى مرجان من وقفتي مثل أسد قصر النيل الذي لا يهش ولا ينش.عاد الهدوء إليها ، قالت : إنها بطلة سباحة وملاكمة وألعاب قوي . لا تخاف الشجار بالأيدي . زعمت أنها إذا صرخت جمعت الناس من منطقة عابدين حتى الزمالك . وأن صوتها سوبرانو من طبقة عالية . قلت : هذا هو المطلوب . بدأنا الضحك . سألتني في ود : أنت خائف ؟ قلت : نعم .

تعلقت بذراعي وأخذته في حضنها ، قالت : لا تخف . بعدها ربتت علي رأسي في ود ، قالت : يضايقني أن تظن للحظة واحدة أنني غبية . وافقتها ، وكنت لا أزال في حيرة من أمري ولم أعتذر لها عن سقطتي ، وقررت أن أعتذر لها في وقت لاحق ، عندما نفيق من هذا الكابوس .

طبعا الدكتورة سلمى مرجان ليست غبية. وقد فهمت المسألة العسيرة علي الفهم وهي طائرة ، وسألتني في حيرة : كيف نتعامل مع حكاية رمان البلي ؟

أطلقـــت الدكـــتورة ســـلمى مرجان علي المسألة التي ترعبني حكاية. قلت : الحكاية لم تبدأ بعد . تخلت الدكتورة سلمى عن وقارها وهللـــت وضـــربت بقدمـــيها الأرض . امرأة فرحة وليست خائفة . قالت: إذن الحكاية في ذيلها حكايات ، ابشري يا شهرزاد .

ضحكنا .

طلبت مني البالونات . أخرجت من جيبي كومة كبيرة وأعطيتها لهـــا . بـــدأت في نفخها واحدة بعد الأخرى وتطيرها وهي تدور في الصـــالة . قالت هذه لعبتي . سألتها عما إذا كانت تقبل أن يصنع لها الرســـام لوحـــة ، رفضـــت . وقالت إذا رسم لها صورة من خياله اشـــترتها . لكـــن أن تجلـــس أمامه بالساعات . لا . هذه المرة كنت أعـــرف أنها تكذب . لكنني لم أضايقها بتعليق ما . سمعت وسكت . قلت فقط بيني وبين نفسي لنر .

قالـــت بعدهـــا سلمى كلاما كثيرا عن التصوير بالزيت ومعاناة الموديلات . وخوفها من رؤية صورتها بالألوان . واستمعت إليها ، وكنـــت أعرف أنها سوف تقبل أن تجلس أمامه بالساعات ليصنع لها لوحة . وكنت أعرف أيضا أنها تتدلل . وتود معرفة رأيي قبل قبولها التردد علي مرسمه ، وأسعدني ذلك .

قبل نهاية الشهر ، سوف تطل ملامح الدكتورة سلمي من لوحة زيتـــية كبيرة ، وعندئذ أحادثها علي راحتي وأنا أنظر إلي اللوحة .

وكنــت مــتأكدا أنهــا ســوف تقدم إليه علي الأقل خمس مرات في الأسبوع لتجلس أمامه ليرسمها في لوحة كبيرة بالألوان وليس بالقلم الرصـــاص . وفي عقل بالي رأيت صورتها أمامي في لوحة زيتية كبــيرة ، تبرز جمال شفتيها ، وثراء صدرها ، وقوامها ، وراودتني رغبة في شراء تلك اللوحة لكنني ترددت في الإفصاح عن رغبتي ، وكنــت أعــتقد طوال الوقت أنها لن تقتني هذه اللوحة بعد رسمها ، وتــتركه ليبيعها إلي متحف من المتاحف العالمية ، وربما أذهب إلي رؤية اللوحة في هولندا أو بلجيكا علي وجه الخصوص حيث له أربع لوحات معلقة هناك ، وهي بلدان قريبة من سويسرا علي كل حال .

٣
- فقر الرؤية الكونية -

غاب عنا الرسام لتحميض الفيلم ، وجلست سلمى علي الأرض تحت النافذة الواسعة ، متربعة كفلاحة تغسل المواعين ، وزعمت أن هـذه جلستها المفضلة . بعدها أشارت إلي الكاتب المصري القديم ، وجلوس الناس في الأسواق .

دعتني إلي الجلوس إلي جوارها ، استمعت إليها ولم أفعل ، فأنا صـدري يتوقف عن التنفس إذا جلست متربعا . قالت سلمى إن هذه الجلسة تمنحها قوة روحية تستمدها من أمنا الأرض ، صدقتها وقلت: طبعا . وأخذت أدور في الصالة ، ولم أجلس مثلها .

ريـاح إبـريل تهـب وتضرب النوافذ ، وتزأر من بين فتحات الأبواب، ثم تهمد فجأة . حركة رمان البلي التي لا تهدأ في الغرفتين المغلقتين تزعجني إلي حد الموت . ليس خوفا من عفريت ، ولكن .

أقول هي الفئران ، في حين أنني متأكد تماما أن هذه الأصوات ناجمة عن تدحرج رمان البلي علي الأرض وارتطامها بالجدران . .

مــن أين يتأتى الهدوء الذي يحل علي الدكتورة سلمى ؟ لا أعرف . يــبدو أن جلســتها متربعة علي الأرض ، تمنحها القوة علي معايشة الوهم إلي جوار الواقع .

وجههــا ســاكن . حبست التساؤلات وسكنت روحها . غاظني سكونها . اتساع عينيها أصبح يضايقني .

هل تكتب الدكتورة سلمى مرجان الشعر في لحظة تتقوض فيها أركان عالمي ؟

طلبــت مــن إدارة الفندق الليلة الفائتة ، أغطية صوفية إضافية وأنا القادم من بلاد الثلج ، وكنت متأكدا من تبدل الجو في الساعات القادمــة ورأيــت من الخير ذهابنا ، أما إذا فضلت الدكتورة سلمى مرجان البقاء ، أعتبر ذلك قلة ذوق منها .

الــرجل صديقي . جئنا سويا ويجب أن نذهب سويا ، وهذه هي الأصول التي تعرفها البنات ، فما بالنا بدكتورة مثقفة ؟

انــتظرت فقــط فراغ صديقنا الرسام من طبع الصور وبعدها نذهب . ولم أقل لها ذلك .

فـــي وقفتي في منتصف الصالة ، تفتق ذهني عن فكرة عجيبة مشــينة ، وهي ضرورة إقناع الأميرة بارتداء ملابس ضيقة محزقة، فهــذا فــيه خير لها ولي . ملابس محزقة تضايقها في المشي وعند ركوب السيارة ، أقدم لها كومة ملابس ضيقة ، وأقول لها هذه هديتي مــن جنــيف ، كلا ، أقول لها هذه ملابس من باريس وروما حيث ملوك الموضة .

الملابــس الضيقة المحزقة جدا سوف تعوق أميرتي عن السير وتمــنعها مــن الطيران . تجعلها تسير مثل أبي قردان . تحجل في مشــيتها كأنها مصابة بكسور في عظامها . الصينيون كانوا يضعون أقــدام البــنات فــي أحذية حديدية حتى لا تكبر أقدامهن . الملابس الضــيقة التــي تقبض علي الخصر ، وتمنع مفصل أعلي الفخذ من الحركة ، ورجل البنطلون التي لا تسمح بثني الركبة ، والبلوزة التي تضــغط علــي صدر المرأة ، وتمنع رئتيها من الاتساع والانقباض لتتــنفس ، هــي روشــتة العــلاج لمنع الدكتورة سلمى مرجان من الطيران .

تأملت شكلها وهي تحجل كأنها تسير علي ساق واحدة وضحكت . درســت مزايا الملابس الضيقة التي تمنع من الطيران ، وأنا أدور في الصالة ، ولم يكن التفاتي إلي اللوحات المعلقة بين حين وآخر ، سوى نوع من التدليس .

محــلات بــيع ملابــس السيدات ما أكثرها في القاهرة ، المهم البحــث عــن محــل موضات مضمون يتعامل في الملابس الفاخرة الجاهــزة الــواردة من باريس وروما ، فهذه امرأة تفهم في نوعيات القماش وخطوط الموضة . ويا بئس الرجل الذي يشغل نفسه بملابس النســاء لســبب أو آخر ، فهذا هم ، ويا ويل من يقوده حظه العاثر ويذهب مع خطيبته أو زوجته أو صديقته لشراء ملابس نسائية .

قالت سلمى : أنت قلق .

قلــت شيئا مبهما ، وفي ذات اللحظة ، سمعنا ضجة خفيفة في غــرفة الــنوم ، ســقوط كــوب مياه أو طبق . قامت : طلبت منها

الجلــوس فــي موضعها . وكان الترام في تلك اللحظة يمر من أمام العمــارة ، فجلجل بصليله ، ونسينا الضجة ، أو لنقل نسيت هي ما جــرى منذ برهة ، وسألتني عما يضحكني ؟ قلت : عندي مجموعة من الملابس التي تناسبها ؟ قالت : لا أظن .

ضايقني ردها ، ألا أستطيع شراء ملابس ضيقة لها من باريس أو روما ؟ عادة ما يقول الناس : لا. شكرا ، لكنها لا تظن ، من أين جاءها عدم الظن هذا ؟

تركت موضوع الملابس الضيقة برهة ، وسألتها عما إذا كانت جائعــة ؟ قالت : الثلاجة مليئة بما لذ وطاب . وأضافت أنها سوف تعد المائدة ، إذا أذن لنا صاحبنا بالبقاء .

ضحكت .

جئنا لنمكث . لا بأس . بقاؤنا لا يضايقني . يضايقني فقط لعب الفــئران برمان البلي في الغرف المجاورة . ابتعدت وعدت وجلست مــتربعا إلي جوارها علي الأرض ، سألتها عما لا يعجبها في حركة الشعر الحديث في مصر ؟ قالت : ضحالة الرؤية الكونية .

نســيت مؤقتا حكاية الملابس المحزقة التي سوف تجعلها تعرج فــي المشـــي إن شاء الله ، وشغلتني مسألة ضحالة الرؤية الكونية ، فهذه ليست ضحالة مياه عكرة ، بل ضحالة رؤية كونية ، ولا بد من دراسات ومراجع .

فقر الرؤية الكونية في الشعر الحديث ؟ يا للهول . هذه مصيبة جديـــدة لم أسمع بها في جنيف ، فمصائب العصر الحديث تتركز في العولمة وثورة الاتصالات والهندسة الوراثية وأسلحة الدمار الشامل العراقـــية علــــي وجه التحديد ، وإذا تعمق البعض طالب بضرورة التنمـــية المستدامة وعدالة التوزيع وسد الفجوة بين الشمال والجنوب إلي غير ذلك من تعبيرات محفوظة أما فقر الرؤية الكونية في الشعر الحديث في مصر فهذه جديدة .

سألتها عن الشعر العربي والعالمي ، قالت : فقر الرؤية الكونية بدرجـــات مختلفة وفقا لدرجة التطور . قلت : طبعا ، الشعر الحديث في الدول النامية لا بد أن يكون متخلفا عن الشعر الحديث في الدول المتقدمة في مسألة الرؤية الكونية . وأضفت مؤكدا : لا جدال ؟

كنـــت أجلـــس متربعا علي الأرض ، وأعرف أن ما نطقت به الدكـــتورة ســـلمى مـــرجان ، هـــراء في هراء ، علي الرغم من تخصصـــها الرفـــيع ، إلا أنني طاوعتها بسبب جلوسي متربعا علي الأرض ، لأننــــي إذا كنـــت واقفـــا فـــي منتصف الصالة ، كنت قد تصـــديت لها ، ولكن ما دمت متربعا علي الأرض ونفسي يضيق ، رأيـــت عدم مصادرة أقوال باحثة في قامة الدكتورة سلمى مرجان ، فـــربما تخرج علينا في يوم ما بنظرية جديدة تؤهلها للحصول علي جائـــزة نوبل ، كما أن مسألة فقر الرؤية الكونية في الشعر الحديث

وفي مصر بالذات لا ضرر فيها ولن تعترض عليها وزارة الثقافة أو جهات الأمن، فتلك الجهات مشغولة بأمور أكثر أهمية وخطورة .

ورأيت البدء في جمع مراجع تتناول قضية فقر الرؤية الكونية ، وسألتها عما يضايقها في حركة الأدب الحديث عموما ، قالت : ذات الأسـباب ، فقـل جدنا نجيب محفوظ الحارة علي حركة الأدب في الخمسين سنة الماضية بالضبة والمفتاح .

رأيت قولها عدوانيا وغريبا شديد الغرابة ، فعمنا نجيب محفوظ فتح أبواب الأدب وشق طرقا جديدة في السرد وعلمنا قراءة الرواية الحديـثة ، وليس من العدل تناول أعمال الرجل الفائز بجائزة نوبل بهـذه البساطة ، ولو كان معنا عمنا يحيي حقي لأعترض بشدة علي قولهـا وربمـا طالب برفدها من الجامعة ذات الشأن وتحويلها إلي معهد للتطريز والطبخ .

ومض خاطر في رأسي كالبرق ، وتذكرت أنني قلت ذات مرة إعجابـا ولـيس نقـدا ، إننـي حبـيس حارة جدنا نجيب محفوظ . وانـتظرت أن تضـيف شيئا جديدا ينورني ، قالت : هذا قولك قبل نهاية القرن بسنوات . كلماتها أرضت غروري . سررت ولم أناقش.

سألتها ، لماذا لا تطير الناس في أدبنا وتعبر الجبال ؟

قالت : تقصد الواقعية السحرية وشغل جارثيا ماركيز ؟ قلت : نعـم . قالـت : في ألف ليلة وليلة تطير الناس في الحكايات وتعبر

القـــارات مـــن الهـــند إلي السند . أما حارة عمنا نجيب محفوظ فلا تعرف المطارات ولا حركة الطيران للأسف .

رأيت كلامها معقولا .

قلت : بدأت شهرزاد الكلام . سألتها هل تخاف الطيران ؟ قالت إنهـــا تحلم بقيادة طائرة . وربما تتلقى دروسا في الطيران الشراعي فـــي الربيع القادم . سقط قلبي . هذا هو المحك . الطيران واحد من أحلامهـــا . بـــل حلم حياتها . سطعت الشمس ، رأيت ملابسها علي هيـــئة طائرة من حرير ، وهي تجلس في وسطها تحرك جناحيها . امرأة تقود طائرتها الخاصة وهي جالسة .

لا بـــد من سرقة هذه الملابس وحرقها في مكان آمن بعيدا عن الأعيـــن ، واخترت لذلك منطقة نائية بعيدة في الصحراء الشرقية . يتبقى سرقة هذه الملابس ؟ وهذه فعلة لا يقدر عليها نشال محترف ، كمـــا أن ســـرقة المعارف عيب . وأنا لست نشالا ، وسرقة ملابس أستاذة جامعية بعد التعرف عليها بساعتين لا تجوز .

هل أصارح الدكتورة سلمى بمخاوفي ؟

أقـــول لهـــا أنا أخاف أن أقرأ في الصحف أن أميرتي طارت ، وســـقطت بها الطائرة الصغيرة التي تقودها ، وأنا لي تجارب كثيرة مـــع هـــذه المصيبة ، وشاهدت كثيرا من الفتيات والفتيان ، يطيرون بطائرات من حرير علي جبال الألب ، ويفقدون حياتهم بسبب أعمدة الكهرباء قرب الهبوط ، وليس في الأجواء العالية .

يقف الواحد منهم علي قمة من قمم جبال الألب ، يندفع جريا ،

وهـو يفـرد ذراعيه ويحمل الطائرة ويجري بها ويعبر حافة الجبل ويسـقط في الهواء ويظل معلقا بين السماء والأرض ، لعبة ، طائرة مـن حريـر ولهـا جناحان ، وفي الهواء يجلس ، ويقودها بطريقة بدائية.

الطـيران لعبة مثيرة وأعرف ذلك . . روى لي هانز فوجلي قبل سقوطه بساعات أنه يهوي الطيران من صغره . وأنه في يوم ما سـوف يدخل هذه اللعبة إلي مصر . حلمه الطيران من فوق الهرم الأكـبر ، لكن هضبة الأهرام لا تتميز بقوة الرياح . جبل عتاقة في الشتاء مناسب للطيران . قدم إلي مصر في العامين الماضيين ودرس اتجاهات الرياح ومساراتها وسرعتها . سنوات صباه وشبابه قضاها فـي تدريـبات مـن أجـل هذه الهواية . تعلم هانز فوجلي السباحة والجري وألعاب القوى وتخطي الحواجز والقفز فوق النيران وتسلق الجبال . تعلم ذلك كله من أجل البقاء معلقا في الجو . وسقط بطائرته علي أسلاك كهرباء الضغط العالي في سفح جبال مورين بعد حديثنا بـأربع ساعات . بكيته . أعطاني قبل موته عنوانه وأرقام تليفوناته والفـاكس وعنوان البريد الإليكتروني الخاص به . مدني بكل وسائل الاتصـال بـه ، وبعدها مات . مزقت الورقة عند وضع جثمانه في سـيارة دفن الموتى . مزقت الورقة وشيعته إلي الأبد . لا فائدة من أرقام تليفوناته بعد موته ، لن تنفع في اتصالي به .

وكانـــت ثالـــثة حادث سقوط أسمع بها في خمسة أيام ، وعدت حزيـــنا من إجازتي إلي جنيف . بكيتهم كلهم ، ولم أكن أعرف من بيـــنهم سوى هانز فوجلي الذي التقيته في الفندق ، وتعارفنا ، تناولنا الإفطـــار معا عدة مرات ، وفي المساء بعد عودته كنا نشرب البيرة ســويا ، وفـــي كل مرة يحدثني عن جبال مصر ، ويروي لي شيئا عـــنها حتى أحببت جبال الصحراء الشرقية وأنا في سويسرا ، ولهذا الســـبب اخـــترت الصحراء الشرقية موضعا لحرق ملابسها ، فهناك الجبال لونها لون النار كما قال لي .

وإذا كانـــت الجـــبال في الصحراء الشرقية ، لونها أحمر مثل النار، فهذه هي قمة المراد من رب العباد . فنحن لا مقصد لنا سوي إشـــعال حريق صغير علي القد ، حرق سروال صغير ومشد صدر وقمـــيص داخلي وبلوزة خفيفة نصف كم وبنطلون وجاكت فستقي . وربمـــا تحترق هذه الملابس بمجرد وضعها علي قمة جبل من تلك الجـــبال التـــي لونها أحمر بفعل كثرة المواد القابلة للاشتعال وصهد الشمس الحارقة .

كـــل هذه الترتيبات العويصة والمخجلة في آن واحد ، قمت بها وحـــدي وأميرتي جالسة هادئة البال في مرسم في منطقة باب اللوق صاحبه شغل عنا بتحميض عدة صور . علي كل حال، هذه مخاوفي وليست مخاوفها . ولكل منا عفاريته الخاصة التي هي علي مقاسه ،

وربمـــا عفاريتـــي لا تقلقهـــا ، وهذا أغلب الظن ، لهذا يتعين عدم مصارحتها بما تمليه علي عفاريتي .

هل يوجد عاقل واحد في هذه الدنيا الواسعة يخشى طيران امرأة بسبب ألوان ملابسها ؟

طـــبعا كـــلا وألف كلا ، ولكن الحيطة واجبة ، حاولت نسيان المســـألة واتخـــذت سمت الحكماء ، قلت : القاهرة المحروسة ليست جـــبال الألب . والقياس له معايير . باختصار لا يصح جمع الشامي علي المغربي ، وإلا فسدت علوم المنطق التقليدي والرياضي والكمي الحديـــث . اســـتراح عقلـــي لهذا المنطق ولم يطمئن قلبي ، وزادت مخاوفي .

ضـــحكت مـــع قولـــي : لا يصح جمع الشامي علي المغربي . وســـألتني سلمى عما يضحكني ، أخبرتها بأنني تذكرت المثل القائل بعـــدم جـــواز جمـــع الشامي علي المغربي . قالت : ما أجمل جمع الشامي علي المغربي ، أليست هذه هي الوحدة العربية ؟

قلت لها ، هذا المثل يشير إلي الموز المغربي والفستق الشامي، ولا علاقة له بالوحدة العربية . ضحكت من حكاية الموز والفستق ، قالت : فهمت .

مـــع ضـــحكاتنا ، زادت الضـــجة في الغرف المغلقة ، الفئران توحشـــت وأصبحت قططا تلعب برمان البلي . وكنا قد رأينا قطتين

صـــغيرتين اختفتا فور قدومنا ، هربت الفئران وتبقت القطط لتلعب برمان البلي ؟

قالـــت سلمى من جلستها : الشقة في حاجة إلي كلب متوحش . الفئران والقطط تسرح في الشقة ، والحصول علي كلب متوحش في القاهـــرة ما أسهله . كيف غابت عني هذه الفكرة ؟ كلب يقضي علي الفئران والقطط والعفاريت . جاء صديقنا في خطواته الرتيبة ، وفي يده الصور . قال : صور جميلة .

سألته : كلها ؟

قال : طبعا . رأيت مداعبته ، سألته ، لماذا لا يرسمها بالريشة بدلا من الكاميرا ؟ قال : لوحة زيتية كبيرة بالألوان ، في حاجة إلي شهور ، وأنت تعرف . .

بعدها أضاف :

ـ الناس مشغولة ، التصوير دراسة جمالية وطبية ونفسية وروحية . طـــبعا . إضاءة ومعالجة ألوان . طبعا . صبر . طبعا . معايشة بين الفنان والشخصية . طبعا .

تهز أميرتي رأسها ، تستمع ولا تضحك من كثرة تكراره كلمة طـــبعا . أصـــبحنا ثلـــة أصدقاء . لا أعتقد أنني تعرفت إلي أميرتي صـــباح الـــيوم فقط ؟ هذه صديقتي من زمن سابق . قابلتها في حفل توقيع كتاب ، في ندوة ثقافية ، في دار عرض فيلم طليعي ، في دار

صحافية ، علي مقهى ؟

أشـــك في ذلك أيضا ، لأنني لو رأيتها في وقت سابق لكنت قد تعلقـــت بهـــا ، أو علي الأقل لصق اسمها في ناحية ما من تلافيف الذاكـــرة إذا كنـــت نسيت هيئتها لسبب ما . ربما رأيت صورتها في صـــحيفة أدبـــية أو في كتاب . وتوقفت عند هذا الحد من التفكير ، خشية الغوص في أمور لا أحب الغوص فيها هذه الساعة .

قاومت فضولي ولم أسأل الدكتورة سلمى مرجان عما إذا كنا قد تقابلـــنا قـــبل الـــيوم أم لا ؟ والنســـاء عامة في الشرق والغرب ، يزعجهن هذا السؤال إلي حد الموت ، ويأخذنه علي سبيل الذم ، وأنا أعرف ذلك من تجارب سابقة .

يبدو أن صديقي الفنان قال شيئا عني من قبيل النميمة المحببة ، تلـــك النمـــيمة التـــي لا تفارق جلسات الفنانين والأدباء ، فضحكت الدكـــتورة كثـــيرا ، ثـــم قامـــت وأخذتني من يدي ، وأحاطت كتفي بذراعها ، وقالت : هه . أين أنت ؟ في جنيف أم في القاهرة ؟

كنت لحظتها أحلق علي قمة من جبال الألب ، وانتقل من جبال الألب إلي جنيف حيث كنت مشغولا بمباحثات السلام في يوغسلافيا السابقة ، أثناء مذابح البوسنة والهرسك ، علي يد الصرب والكروات ، وتذكـــرت أن ســـاندرا الفـــتاة الكرواتـــية الجمـــيلة ، ذات الثلاثة والعشـــرين ربـــيعا ، غضبت مني وثارت في لباقة ، عندما قلت لها إنهـــا تشبه الملكة تي ، بل هي الملكة تي ، وإنني لذلك السبب وحده

عشـقتها من أول نظرة ، وعندما واجهتها بصورة للملكة تي وقصة شـعرها الشـهيرة ، بعد أن توطدت معرفتنا ، صرخت قائلة : هي أنا ، وكادت تقع .

وبعدهـا قاطعتني ساندرا الكرواتية ، وأرسلت لي رسالة شفهية مـع صـديقتها الايرلندية ليزا ، تتهمني فيها بأنني قتلتها ، ولم تعد تعرف هل هي ساندرا الكرواتية من زغرب أم الملكة تي الفرعونية من طيبة ؟

حزيـنا محطمـا ابتعدت عن ساندرا . أماكن العمل في الغرب ليسـت أماكن لهو ، فهذا مؤتمر دولي يديره لورد إنجليزي مرموق وتجـري أمـوره تحـت إشراف الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطـرس غالي والحكاية ليست لعبة ، وإذا توقفت ساندرا عن العمل نشـبت أزمـة دولية ، ونبيل سعيد ليس في مقدوره تحمل مسؤولية فشـل مؤتمـر السـلام في يوغوسلافيا السابقة ، بينما المذابح التي ترتكـب ضـد المسـلمين فـي البوسنة والهرسك علي يد الصرب والكروات مستمرة .

قالـت لـي صـديقتنا الايرلندية ليزا أن ساندرا كادت تصاب بالجنون من جراء تلك الصورة ، وكانت حريصة في كلامها ولم تقل إنهـا أصـيبت بالجنون بالفعل ، وقالت لي ليزا إنها أصبحت تؤمن بلعنة الفراعنة بسبب ما أصاب ساندرا من ارتباك .

تركـت الفتاتين علي مضض من أجل نجاح مؤتمر السلام ومن أجل سلامة ساندرا . ابتعدت عن ساندرا الكرواتية وليزا الأيرلندية عن قصد حتى يتحقق السلام علي يديهما .

بعـــد عــدة أشهر من توقفي عن الحديث إليهما أو دعوتهما إلي الغـداء ، قالـــت لي ليزا شيئا باليونانية القديمة لم أتبينه في لحظتها وبحثــت عـــنه في القواميس ، فهذه الفتاة الايرلندية ليزا تعرف ست لغـــات مـــن بينها اللاتينية واليونانية القديمة . . . وقولها كان متعلقا بالســـحر وانقلابـــه علي الساحر اللئيم ، فالساحر لا بد أن يدفع ثمن سحره ، وأن المصريين فراعين وكلهم سحرة ، وأن النبوءة التي لا تـــتحقق فورا لا تضيع ، وشيئا آخر من هذا القبيل ــ ورغم كل ما قالـــته ليزا عن السحر والسحرة ، تعجبت من اعتقادها في السحر ، وهي قادمة من ايرلندا وليست من الهند أو الشرق الأوسط ؟

بعـــد عدة سنوات سألت ليزا علي غداء عمل في جنيف ، علي هامش مؤتمر السلام الذي كان يراوح مكانه ، عن أشهر السحرة في رأيها ؟

قالـــت ليزا إنها تؤمن بما ورد في التوراة ، وكانت صديقتها لا تـــزال علـــي رفضها مشاركتنا الغداء ، وهو ما كان يحزن قلبي ، قائلة، إنها لن تجازف مرة أخري بالحديث إلي خارج نطاق العمل ، خشية أن أخاطبها قائلا : مولاتي الملكة تي ، فيحدث لها ما لا تحمد عقباه . .

وخوفا علي ساندرا الفتاة الكرواتية الجميلة جدا ، ذات الخامسة والعشـــرين ربـــيعا من الجنون ، مزقت مراجعي القديمة التي تضم صورا للملكة تي ، ولم أخبر صديقتها بذلك .

دعـــوت الله سبحانه وتعالي وقلت في ليلي ونهاري ، لم تعرف أرض مصر ملكة جميلة تدعى تي تصفف شعرها وتقصه علي هذا

النحو الفريد ، ولا عاشت علي أرضها واحدة بهذا الاسم ، وزورت تاريخ مصر القديم بحذف الملكة تي من سجلات التاريخ .

كدت أكرر الخطأ القاتل ، وأسأل الدكتورة سلمي مرجان ، عما إذا كـــنا قـــد تقابلنا في السابق ؟ وما أهمية ذلك ، وقد قابلتها اليوم ، وأصبحنا أحبة .

حمـــدا لله الـــذي حماني اليوم من الثرثرة والمزيد في القول ، الدكتورة سلمى مرجان أميرتي وقد قرأت شعرا جميلا لها في السابق وهذا يكفى .

من وقفتي في منتصف الصالة بالضبط، عند حافة السجادة التي تـــأكدت مـــنذ قلـــيل ، أنها قديمة وغالية الثمن ، كنت أتأمل سكون الدكـــتورة ســـلمي مـــرجان ، وتلك البسمة الراضية المرتسمة علي شفتيها ، امرأة مطيعة وليست مزعجة ، قلت لها ، نزور صديقا لي، قالت ، عندها وقت وقامت . هذه امرأة وجودها يبعث علي الراحة .

خلعت حذاءها وهي جالسة علي الأرض ، أخرجت من حقيبتها خفـــا ، ورأيـــت قدميها من وقفتي في وسط الصالة . اقتربت منها . قدمـــان متناســـقتان . مالت بجسدها إلي تحت ، في انحناءة رشيقة ، وسحبت الجورب الأول . بان لون بشرة القدم الأبيض ، وأنا أعشق ملمس الأقدام النسائية الجميلة ، وأكره الأقدام التي تفوح منها رائحة العـــرق والأحذيـــة الرخيصة ، ولم تفح رائحة سيئة من قدميها . لم تـــرفع ساقها ، بل نحت فردة الحذاء في يسر ، ووضعت الخف ، ثم اســـتدارت قلـــيلا ، ونحت فردة الحذاء الأخرى ، ووضعت الخف ، ووضـــعت الجوربيـــن في فردتي الحذاء ، وقامت وفردتا الحذاء في

يدها ، ووضعتهما قرب الباب .

صنعت كل ذلك في رشاقة وهدوء ودون ضجة ، لم ينقطع نفسها وهي تنحني لخلع الحذاء . لم تتأوه ، أو تشكو حال الدنيا ، كما أفعل أنا كل صباح ، عندما أضع حذائي ، وفي المساء عندما أخلعه بعد تعب النهار .

لبس الحذاء في الصباح عقوبة وخلعه في المساء عقوبة أشد . في الصباح أكون قد أشعلت عشر سجائر في أقل من نصف ساعة وعبأت صدري بالدخان ، وعندما انحني تضغط عضلات بطني الساقطة علي رئتي واختنق . أري الموت . أفرد جذعي وألعن لبس الأحذية وربط عقدتها ، ولا ألعن السجائر . أبدأ صباحي بالسباب علي الريق .

أموت في كل مرة أخلع فيها الحذاء أو ألبسه . أتذمر . أشكو حال الدنيا . أتمرد . ولا فائدة . لا بد من لبس الحذاء في الصباح وخلعه في الليل ، ولا بد من التدخين طوال ساعات يقظتي .

مشكلة الأحذية خاصة الأنيقة منها ، لازمتني منذ سنوات شبابي المبكر ، بسبب كرشي البارز ، وترهل عضلات بطني وكأنني امرأة حامل في شهرها الثالث . ولهذا أنا ألبس دوما أحذية واسعة ، ويسخر باعة الأحذية في أرجاء المعمورة مني لهذا السبب .

اطلب حذاء مناسبا ، أقيسه ، يعجبني ، وعند الشراء آخذ واحدا آخر يزيد عليه بنصف نمرة مطمئنا ولا أقيسه ، يضحك الباعة مني، أقول لهم : هذا الحذاء لأخي التوأم . ويصدقوني . فهل هناك مجنون يبدد أمواله في شراء حذاء أنيق متين لا يناسب قدميه ؟

المحلات التي توفر الأحذية بفارق نصف نمرة قليلة وأسعارها مـرتفعة ، لكـنها مـتوفرة في المدن السويسرية الكبيرة مثل جنيف وزيوريخ وبازل ولوزان ولوجانو . وهذه المدينة الأخيرة القريبة من إيطاليا تتوفر بها أجمل الأحذية وأمتنها .

لهذا أنا أشتري أحذيتي الغالية التي قد يراها البعض لا تناسبني من مدينة لوجانو . راحة الإنسان حتى إذا كان مدخنا شرها تبدأ من قدمـيه . وأنـا أشـتري راحتـي بالحذاء الواسع . كما أنها مسألة اقتصادية أيضا فالحذاء جيد الصنع يعيش معي أكثر من خمس عشرة سنة حتى أمل من لبسه .

هذا الحذاء مثلا اشتريته بعد توقيع اتفاقيات أسلو عام ١٩٩٣ ، ولا يـزال صالحا لسبع أو ثماني سنوات أخري ، ومن المحتمل أن يـذوب ويتهرأ جلده ، وتكون القضية الفلسطينية علي حالها ، محلك سر ، فلا مدريد نفعت ولا أسلو نفعت ، وجاء شارون ليذبح .

انحنيت بجسدي كله علي الدكتورة سلمى وأنا أقف ، اقتربت من قدمـيها وقلت شيئا متقطعا كالثأثأة بسبب احتباس صوتي وبسبب قلة الهـواء الداخل إلي رئتي . لكنها فهمتني . ضحكت . تجلس متربعة والخفـان في قدميها . طلبت منها أن ترفع قدميها وتريني الخفين ، فعلـت ، رفعت قدميها واحدا بعد الآخر وهي جالسة مستريحة ، ولم تلهث ولم ينقطع نفسها .

اهتمامي بقدمي الأميرة ، وهي تخلع حذاءها ثم تضع الخف بدلا مـن الحذاء ، وطلب رؤية الخفين لأسباب تخصني وحدي . وتقبلت الأمـيرة سـماجتي بصدر رحب ، فهذه التصرفات الصغيرة ليست

مســتحبة ومن جانب آخر لا تخدش الحياء . رجل من أراذل الناس يــتأمل خف امرأة ؟ ما الضرر . ربما يود واحدا مثله علي مقاسه ، ولا يعرف من أين ؟ إذا سألتني سلمى عن سبب تحديقي في الخف ، طلبت منها شراء خف لي .

طبعا لن أحدثها عن جمال قدميها أو حركتها الرشيقة وهي تخلع الحذاء بينما هي جالسة ، فمشكلة قطع نفسي وأنا أبدل حذائي كل يوم لا تخصــها ، كمــا أنهــا لا تفهــم في الأمور الطبية وطبيعة عمل الرئتين، ولن تفيدني بنصيحة لمنع قطع نفسي .

علي كل حال أنا كنت رقيقا معها ، لم أنظر إلي صدرها المعبأ وأنــا أنحني عليها من وقفتي ، ربما حانت منـي نظرة غير مقصودة إلــي قمة رأسها فلمحت بقعة صغيرة في قمة الرأس الشعر فيها قد تســاقط وأصــبح خفيفا بعض الشيء ، وهذه البقعة لا خطورة منها حالــيا وإن كانت نذير شؤم في المستقبل ، فتساقط الشعر عند النساء خاصة المتعلمات منهن مرض عضال ، ومعظمـهن تقلقه هذه المسألة التــي لا علاج سريعا لها ، وقد أجلت مشكلة تساقط شعرها في تلك البقعة ، وشغلت فقط بالخف .

لم أضايقها أو أجرح شعورها أو أسخر من تلك البقعة الصغيرة التــي أصــابها القــرع مــبكرا ، وكان من واجبي أن ألفت نظرها وأحذرهــا مــن إهمــال هذه البقعة ، لكنني أجلت ذلك لوقت آخر . تركــت ذلــك كله ، وقلت : الأقدام الكبيرة دليل كرم وثراء ، وهذا مديــح ولــيس ذما ، إلا إذا كانت تؤمن بالجمال الصيني القديم قبل ثــورة ماو تسي تونج العظيمة ، وتري أن جمال المرأة في قلة حجم

قدمـــيها ، وهذه تكون مصيبة عقلية قد حلت بالبلد وبالوطن العربي كله .

حماقـــات الأجـــيال الجديدة الضائعة في أجواء ما بعد العولمة كثيرة ، وما يهمني منها ما يطلقون عليه أزمة الإبداع وكتابة الجسد. وهـــذه أمـــور لـــم نناقشها بعد ، بسبب انشغالي بقضية فقر الرؤية الكونـــية التـــي أشارت إليها ومررنا عليها مرور الكرام . لنا جلسة طويلـــة عريضة بعد الغداء إن شاء الله لمناقشة هذه المسألة . وقبل الحديـــث عن كتابة الجسد وفقر الرؤية الكونية أنا عندي مشاكل مع أحذيتي .

ابـــتعدت عـــن الدكتورة سلمى ، ووقفت في منتصف الصالة ، علي مقربة من حافة الكرسي الذي رمت عليه الجاكت . ربما التفكير فـــي كـــتابة الجسد هذه قد يساعد في حل مشكلتي مع الأحذية وهي المشكلة التي تؤرقني ، وهنا يكون لتلك الكتابة فائدة .

لكننـــي ســـوف أترك مشكلة الأحذية وأناقش معها قضية فقر الـــرؤية الكونية أولا فهذه مسألة لها أولوية عندي قبل كتابة الجسد ، كما أن فقر الرؤية الكونية يمس مشكلة أحذيتي من بعيد ، فهذه مسألة لها علاقة باحتياجات السوق وآليات العولمة .

أشعة الشمس تسقط من النافذة العالية علي حافة الكرسي وتشعل ألـــوان الجاكت الفستقي . تتابع الأشعة مسارها وتلهب وسط السجادة بالضـــبط . مـــددت يدي وسويت أطراف الجاكت . ضحكت . ظننت أننـــي أتحســـس ملمســـها وأفحص قماشها . قلت : ألوانها جميلة . ابتسمت . قلت : ألوانها مناسبة في الليل . قالت في ضيق : الجاكت

تضايقك ؟ خذها يا أخي . أحرقها. إرمها في النيل .

طاوعتها في التو واللحظة ، أعفتني من سرقة الجاكت ، ويتبقى لنا سرقة ملابسها الداخلية ، وهذه مسألة ليست سهلة وفيها صعوبة .

لففت الجاكت علي الفور ووضعتها في كيس ورقي كنت أحمله في نهاري وأضع فيه صحف الصباح . أحرقها في الصحراء الشرقية في منطقة جبلية أو عند هضبة الأهرامات أو في حمام بيتي لا يهم . المهم التخلص منها .

لم تبد الدكتورة سلمى ندما ، وأنا من جانبي لم أتراجع . وفي حركة لئيمة مزقت كم الجاكت أثناء وضعه في الكيس ، فسددت عليها باب التراجع وقد أصبحت الجاكت في خبر كان .

تجاهلت الدكتورة سلمى تمزيق كم الجاكت ، والتفتت إلي حكاية موت هانز فوجلي ، وسألتني عن تفاصيل حياته ، بينما علاقتي به لم تتعد خمسة أيام . . .

سألتني : تناولت معه إفطارا وشربت معه بيرة ورأيته وهو يحمل الطائرة علي كتفيه ، تكلم يا أخي . وطلبت مني أن أحدثها عن مظهره ، طول قامته ، متانة جسده ، ملامحه ، مهنته الأساسية . طعامه . متزوج أم لا ؟ لماذا لم يصبح قائد طائرة بوينج أو كونكورد ؟

قلت لها في اختصار ، هانز فوجلي كان معلما في مدرسة ابتدائية . رجل وسيم الطلعة ، طويل القامة ، هادئ الطباع إلي حد كبير . سألتني عن وجهه ، مستدير أم مستطيل ؟ تريثت ، وجهه كان مستديرا ، وعيناه واسعتين، بشرته ناصعة البياض . تريثت في

الحديث . رأيت وجه الشبه في تقاطيع وجهيهما . بدلت وغيرت في سـماته عـن عمد . كذبت . ماذا يهمها إذا كان هانز فوجلي وجهه مستديرا أم مثلثا ؟

الشـيء الصحيح الذي قلته عن هانز فوجلي : كان معلما . كما أن معظم تساؤلاتها كانت تتعلق بمسائل لم أتوقف عندها لا في حياته ولا بعـد موته . بعد قليل قالت : كان معلما . قلت : نعم . قالت : معلمـا مثلـي . ضحكت . أخذتني الدكتورة سلمى إلي جبال الألب رغما عني .

انحنيـت ناحـية الأرض واقتربـت من قدميها ، مددت عيني ولمسـت قدميها ولم أمد ذراعي أو قبضة يدي ، كنت أستند بيد علي الأرض والأخـرى أرفعها في الهواء ، لمست قدميها بعيني . قدماها كبـيرتان مقـاس ٤٤ علي الأقل ، وأنا صاحب خبرة في مقاسات الأحذية ، قدما هانز فوجلي كانتا ٤٦ . قال لي ذلك ذات صباح .

لـم يفـت الدكتورة سلمى سؤالي عن مقاس قدمي هانز فوجلي الذي مات ويتعذر الوصول إليه ، تظن هذه الحسناء أنني بائع أحذية أو أننـي أحـتفظ بمقاسات أحذية أصدقائي من الموتى . لو سألت الحانوتـي الذي غسله ، والطبيب الذي شرح جثمانه ، قبل الحرق ، عن مقاس قدم هانز فوجلي لما عرفا ، ماذا تظن بي هذه المرأة ؟

تضـايقت ، أنـا لست حانوتيا ، لكنني لم أخذلها ، قلت : حذاء هانـز فوجلي ٤٦ . سألتني ، متأكد مقاسه ٤٦ . قلت مقلدا صديقنا الفـنان : طـبعا . ضـحكت . نظرت إلي قدميها . ملست عليهما ، رأيـت تقوس باطن القدم . تبارك الخالق . ابتسمت . قالت الدكتورة

سلمى مرجان فرحة : لا بأس . أنا حذائي مقاس ٤٤ ونمرتان فرق بين الرجل والمرأة عادي . مقاس قدمي يرشحني للطيران . فهمت مقصـــدها مـــن تلك الأسئلة . تخيفني . قالت : لا تقل لي مرة ثانية الأقـــدام الكبـــيرة دلـــيل كرم وثراء . قل فقط الأقدام الكبيرة تصلح للطـــيران . نظرت سلمى إلي حذائي الكبير ، وقالت : وأنت تصلح أيضـــا لقيادة طائرة . قلت لها حزينا في سخرية مريرة : هذا حذاء أخي التوأم .

٤
- الكلب -

حلت ساعة إعداد الطعام وتجمعنا في المطبخ .

وقــبل أن تمد الدكتورة سلمى يدها وتضع الزيت في الطاسة ، قدم لها صديقنا الفنان قميصا مكويا من قمصانه الرجالي المخططة ، ومــريلة نظيفة من مرايل المطبخ . تناولت الدكتورة سلمي القميص والمــريلة ، وأخذتنــي في يدها إلي الناحية الأخرى من الشقة لتبدل ملابسها . قرب الحمام الصغير ، فردت القميص المخطط ، قالت : جميل . وتناولت منها المريلة ، حتى تخلع بلوزتها قصيرة الأكمام .

كــنا نقف سويا داخل الحمام والباب مفتوحا علي آخره . فتحت أزرار البلوزة ، وسحبتها من عليها وعلقتها في مسمار في الحائط ، بيــنما كنت أنظر إلي الشباك ، ولما رأيت ذراعيها من عند الكتفين من الخلف ، مددت يدي وسحبتها ناحيتي ، ثم وضعت يدي الاثنتين علي بطنها ، وطلبت منها أن تغني : دو . ري . مي . فا . صول .

بصوت مرتفع . قالت : طيب . وغنت من نغمة ال دو حتى وصلت إلي نغمة الصول في سلاسة ويسر .

صوت رنان يدور في منور العمارة ويعود رخيما . ولما انتهت من الغناء ، وقبل أن تضع القميص الرجالي المخطط عليها ، سحبت حمالات قميصها الفستقي وأنزلته إلي منتصف البطن ، ووضعت يدي علي صدرها تحت المشد ، وضغطت بقوة علي الثدي الأيسر القريب من القلب ، ثم تطاولت وقرصت الحلمة وفركتها بقوة. تألمت ، قالت : ليس هكذا . جرحتني .

كنت في هذه الأثناء آخذ الدكتورة سلمى إلي حضني ولا أراها. في مرآة صغيرة معلقة إليَ حافة شباك النافذة أري كتفيها من الخلف وظهرها فقط . أنتظر قدوم الصدى العذب من نافذة المنور ، لكنها توقفت عن الغناء . طلبت منها أن تغني لأسمع رجع الصدى . رفضت. وكنت طوال الوقت ألمس جسدها من الأمام وأرى صورتها من الخلف في المرآة .

استدارت سلمى ناحيتي ، وغمغمت غاضبة لما رأتني أنظر إلي صدرها في نهم . سألتني في غيظ : تود تصويري أنت الآخر؟ قلت في هدوء : نعم . قالت : لست موديلا . ضايقني قولها أنت الآخر . قلت متوددا : مُوديل لي فقط .

ثورة مكتومة تغطي وجهها كله ، فيض غضب عارم ، وكانت

إلـــي جانب ذلك حزينة ، ولمست حزنها ، وضايقني حزنها إلي حد المــوت، قالـــت : طيب . وفي حركة مفاجئة أنزلت مشد الصدر ، مددت راحتي ووضعتها علي حلمتها ، وكان الشباك يدخل جزءا من أشـــعة الشمس الساقطة في منور العمارة وتنعكس علي المرآة وترد علي الحائط وتضيء جسدها . بعدها قالت في غل : أهنتني يا نبيل . أخذتها في حضني في ود .

بدأت سلمى ترتب ملابسها الداخلية بين ذراعي صامتة ، وكنت أراهـــا فـــي المـــرآة . وهدأت قليلا ، وطوال الوقت ترفض رؤيتي لجســدها مباشـــرة ، وتقـــترب منـــي لتختبأ في جسدي وهي ترتب ملابسها ، وتفهمت ذلك .

قالـــت فـــي حســـم : نزوة سخيفة. لسنا علي الشاطئ . أحنيت رأسي موافقا . قالت إنها تتفهم دوافع الكتاب والفنانين . الجسد مجال عملهم مثل الأطباء ، ولكن هناك أصول يعرفها الفنانون والأطباء . قلت : طبعا .

وضـــعت سلمى القميص الرجالي عليها وتركت ياقته مفتوحة ، كان ضيقا بعض الشيء ، ويبرز تقاطيع صدرها العالي ، ويبدو أنني مددت يدي لتسوية ياقة القميص فزجرتني علي الفور ، ورمت يدي بعيدا عنها ، ولمست قوة يدها .

عـــند خروجنا من الحمام ، كانت غاضبة . أخذتني من يدي ،

قالــت : الــيوم لن تلمسني ؟ فاهم . قلت : طيب . كانت كلمة طبعا علي لساني ، لكنني قلت : طيب . وهذه اللعثمة كثيرا ما تحدث لي ، أقول طيب بدلا من كلمة حاضر .

هــذه المرة كنت متأكدا أنني سوف أقول طبعا لأرضيها بعد أن نكــدت علــيها ، لكني قلت : طيب . لا أعرف كيف خرجت كلمة طيــب منــي ؟ لأن كلمــة طبعا كانت علي لساني . القصد تلعثمت وتلخبطــت الكلمــات فــي فمــي وتساوت : طيب . طبعا . عال . حاضــر. شــكرا . وهــي حاجــة تلخــبط بالفعل بعد أن تجاسرت وأغضبت الأميرة .

قــرب الطرقة التي تفصلنا عن الصالة وعن المطبخ ، صرحت لي بأن اليوم عيد ميلادها . مددت يدي بطريقة عفوية وقربتها مني ، قبلتها قبلة خفيفة ، وأنا أسير إلي جوارها ، ولما وصلنا إلي منتصف الصــالة ، توقفــنا ودســت يــدي في صدرها من تحت القميص الرجالي، وقبلتها في فمها ، ولم تجذب هذه المرة يدي بعيدا ، وقالت إنهــا تســامحني ، وإنها تتبسط معي لأن اليوم عيد ميلادها ، وإنها تحبني .

تطاولــت علــي سلمى في الحمام في عيد ميلادها وسامحتني . تغاضــت في عظمة عن فعلتي وقالت إنها تحبني ، صدقتها ، ليس بسبب كلمة الحب هذه ، ولكن لأنها تشبثت بيدي بقوة وهي تقول إنها

تحبني .

طـــبعا هـــذا الحب علي مقاسي أنا الرجل العجوز الكهنة وليس علـــي مقاس شابة مثلها ، وكنت أعرف سمات هذا الحب منذ رأيتها فـــي مكتـــب صـــديقي المحامي ، فأنا من جيل آخر وهي مشغولة بحفائرها الأدبية .

قـــدم صـــديقنا ، وهـــو يجر قدميه ولا يرفعهما عن الأرض ، يـــزحف ، وعيناه تضحكان ، وفيهما لمعة ، ويغني بصوت خفيض ولكن بطريقة صحيحة : دو . ري . مي . . أبجد هوز حط كلمن . ضـــحكنا . قـــال : الدكـــتورة مغنية أوبرا . خفضت رأسها ، وبان خجلهـــا . قلـــت : نعم . الدكتورة سلمى مرجان بطلة سباحة ومغنية أوبرا . قال : السباحة مهمة لمغنيات الأوبرا .

كنا قد تأخرنا في الحمام بطريقة غير لائقة ، فانطلقت الدكتورة سلمى إلي المطبخ ، واستعدت لتجهيز المائدة .

في البداية أحضرت السكاكين والشوك وأكواب المياه والأطباق، وأحضـــر هـــو صـــينية اللحوم وطبق السلاطة الكبير ، وطلب منها مراقبة الخبز علي البوتاجاز . قائلا : العيش المقرمش جميل .

جلســـنا إلـــي المـــائدة في نهاية الصالة ، سلمى تضع القميص الرجالـــي ، وصـــديقي الفنان يجلس في مواجهتنا ، قلت : اليوم عيد ميلاد الدكتورة سلمى .

توقــف صديقي عن الطعام وبدأ في الغناء ، عيد ميلاد سعيد يا سلمي . ولحقت به في صوت خفيض . بينما ظلت هي تنظر إلينا ، ولــم تسـعفنا بصوتها الرنان عند نهاية الوصلات ، حتى انتهينا من الغناء وقد قطع نفسي ، وضايقني ذلك كثيرا . ماذا لو أسعفتنا بنغمة حـتى ألتقط أنفاسي ؟ لكنها بخلت وتركتنا . بخلت سلمى علينا بنغمة رنانة ومنحت كلا منا قبلة .

كنــت طــوال الوقت أعتقد أنها متأثرة من هذا الحفل الذي أعد بالصدفة وعلي عجل . وفي الحقيقة لم يكن حفلا علي الإطلاق ، لا هدايا ، لا ورود ، لا مشروبات ، لا ضيوف . بل طعام غداء فقط . عاتبنــي صديقي لأنني أخفيت عنه عيد ميلادها ؟ سكتت . لم أخبره أنني لم أكن أعلم . قال : نشتري الهدايا بعد الغداء . وافقته .

كانت سلمى صامتة ، بعد قليل قالت : شكرا يا جماعة ، أجمل عيد ميلاد . بدأنا نأكل . وأنا ساعة الطعام أسرح ، وبعد أن سرحت طويــلا ، تبينت أنني آكل بطريقة آلية ، ونسيت عيد ميلاد سلمى . ســألت صديقي عن محل بيع عباءات مغربية صوف وحرير . قال إنــه يعرف ترزيا مغربيا في الحسين . قلت : نمر عليه بعد الغداء . قال : بكل سرور .

قالت سلمى : العباءات المغربية أصبحت موضة .

وافقتها .

أود شـــراء عباءة مغربية . وأظن أنها أدركت أنني أدبر لحرق ملابسها بعد أن مزقت كم الجاكيت الفستقي . سلمى تفهمني وعرفت أنني أعد لحرق مشد صدرها الفستقي المزين بلون الحناء الذي رأيته مـــنذ قليل في الحمام . سروالها الصغير لمسته ولم أر لونه ، ولا بد أن يكـــون فســـتقيا هو الآخر ومائلا إلي اللون البني أو الحنة ولهذا ســـوف أحرقه هو الآخر : سراويل النساء هذه الأيام لا تملأ قبضة اليد . أكرمشه في يد واحدة وأشعله بعود كبريت .

أقـــدم ملابســـها قربانا لمخاوف لا أساس لها . أحرق الطائرة الحريـــر . أحرق هالة الضوء وإذا تمنعت أحرق هذه الملابس بعيدا عـــنها ، فهـــذا يخلصـــني من مخاوفي أيضا . وليس في نيتي حرق ملابسها لتعريتها أو تصويرها ، كلا ، فهذا ليس مقصدي .

أوهامـــي وســـلم من تخلص من أوهامه . ما قيمة الملابس إذا كانـــت هـــذه رغبتـــي ؟ أسلمتني سلمى اليوم الجاكت لأحرقها ، أو أرمـــيها في النيل ، مزقت الكم ، ولم تندم . سوف أشتري لها عباءة مغربية ملوكي فخمة بدلا عنها .

جلجلة الترام تأتي وتغيب . ضجة عالية في البداية ثم تضيع في ممرات العمارة الواسعة . تمتصها الجدران السميكة والأبواب العتيقة المتيـــنة . قالت سلمى : عمارة مريحة . واحة . عمارة فيها سكون باطني علي الرغم من الضجة الخارجية القاتلة . قال صديقي مؤيدا:

هـي كذلـك . استمعت إليها وتأملت قوله عن العمارة وفضلت الصمت. راحة بال ؟ سكون ؟ من أين تأتي راحة البال ؟

في مرات كثيرة لم أعرف راحة البال في هذه الشقة . فهنا وصلتني أنباء انتحار رفاق وموت أحبة وسجن مناضلين وطلاق صديقات وكوارث أخرى كثيرة لا تحصى ولا تعد . نعم . وأنا هنا لا أتحدث عن الحروب أو الأزمات السياسية ، بل عن تصاريف الحياة التي من المفترض أن تجري سلسلة ميسرة . ولكن . . .

تذكرت مشد صدرها الفستقي المائل إلي البني ، وموديلات رينوار العاريات . سألت صديقي عن لوحة المستحمات ، والمرأة المستلقية علي فراش . قال : كلها في المكتبة .

نساء رينوار شكلت خيال الناس ، وألهبت نفوسهم حتى جاء بيكاسو ، فصنع من النساء مساخيط .

لا أود مناقشة الفن العاري ، ولا الفرق بين الكلاسيكية والتأثيرية والتجريدية والسريالية ، كنت فقط أتأمل نساء رينوار العاريات في خيالي بعد أن . وقلت : الدكتورة سلمي مرجان أجمل من كل نساء رينوار العاريات .

سألت الدكتورة سلمى عن نساء رينوار ، بانت دهشة علي وجهها من سؤالي ، وأخفتها بتناول الطعام ، تأكل كأميرة في تؤدة ، ترفع ذراعيها عن المائدة ، وتجلس منتصبة . لا تثرثر وفمها مملوء بالطعام . أعجبتني طريقة تناولها الطعام في عيد ميلادها . ويا ليتني

كنت مصورا . كنت صورتها وهي تأكل . ونسيت سؤالي لها ، ولم يضايقني عدم مشاركتها لنا الحديث عن نساء رينوار العاريات .

يبدو أن الحديث عن رينوار ونسائه فتح شهية الرسام ، قال : الفن له رسالة دينية . رسالة جمالية . رسالة سياسية . ثم أضاف : طبعا . وأشار إلي لوحة معلقة علي الحائط يطلق عليها ، الملك والعامل ، وقال : هذه اللوحة توقف عندها سارتر . طبعا . سألت الدكتورة سلمي مرجان في دهشة : جان بول سارتر رأي هذه الصورة ؟ قال : طبعا .

أعرف تفاصيل الحكاية ، وتركته يرويها . قال : الطبقة العاملة مثل الأمهات تقدم ولا تأخذ . تعطي بلا حدود . وهذه اللوحة .

تركت سلمى الطعام وقامت تتأمل اللوحة . قالت : تقاطيع الوجه حادة . قال : طبعا . اطمئن قلبي لمجرى حديثنا . نتحدث عن التصوير بعيدا عن الماركسية . ولن تلومني سلمى بعد حديثنا عن نساء رينوار العاريات لأنني في لحظة ود أنزلت مشد صدرها وضايقتها حتى صرخت .

فتح حديث الفن شهية الدكتورة سلمى مرجان للكلام ، واستمعت كما لم أستمع إلي امرأة في حياتي من قبل .

روت الدكتورة سلمى وأبدعت . علمتني. قالت لي ما يضع حدا لغرور جيل بأكمله . فضحتني بعينيها . صارحتني بما لا يصح

ذكره عن مآخذي ومآخذ جيلي ، قالت : جيل هزيمة ٦٧ لا يحق له الكلام . وهل يكابر عاقل في هذا القول ؟ استسلمت .

مـــع تـــناول القهـــوة ، تابعت حديثها وذبحتني . قالت وقالت . وكنـــت أظـــن أنني قد أغضبتها بفعلتي في الحمام ، وسألتها بطريقة ملتوية عن هذا الأمر ، لم تكن غاضبة بسبب ذلك ، وقالت صراحة وبالفم الملآن أمام صديقي ، إنني إذا أردت تصويرها عارية ، فهي مستعدة ، المهم، ماذا وراء الصورة ؟

قهرتنـــي الدكـــتورة سلمى مرجان بقولها ماذا وراء الصورة ؟ لست برينوار ، ولا بصديقي الرسام الجالس إلينا يا سيدتي . قال هو مكمـــلا كلامها : طبعا . المهم ماذا وراء الصورة ؟ العري من أجل العري بورنو . شيء فاضح . ممجوج . طبعا .

لـــم أجادل ، فهذا رأيي من عقود طويلة . وهل أتنكر في نهاية العمـــر لما روجت له في سنوات شبابي . لهذا ابتسمت عندما قالت الدكتورة سلمي مرجان إننا نتحدث لغة واحدة .

لم أطلب من صديقي أن يرسم أو يصور الدكتورة سلمي ، كما أننـــي لـــن احـــتفظ بواحدة من صورها التي سوف يطبعها ، بسبب إقامتي في فندق وأنوي تغييره ، ولا أود وضع صور الدكتورة سلمى في خزينة الفندق ونسيانها ، كما أنني قد توقفت عن الاحتفاظ بصور الآخرين منذ استيلاء صاحب العمارة وولده علي شقتي .

تصـــوير ســـلمى ليس بغيتي ، وفي هذه الزيارة حالتي لا تسمح بصــــداقة أو بحـــب ، ولقائي بها مرجعه الصدفة ، مهما زعمت أننا نتكلم لغة واحدة .

لم أقدم إلي القاهرة للسياحة أو نشر كتاب ، ولدي مشاغل كبيرة ينوء بها نهاري وليلي ، وجئت في أغرب مهمة .

قدمـــت لـــتقديم واجـــب عزاء في عدو لدود فرحت في موته ، عذبني سبعة عشر عاما بأكملها . عدو اغتصب شقتي وأثاث بيتي . عـــدو تسبب في طردي من البلد . عدو دفعني إلي الغربة ..وأخيرا شنق نفسه في غرفة نومي . ألا يستحق هذا الرجل التأكد من صحة موته ؟ لهذا الغرض جئت .

رأيـــت صـــوره في الصحف معلقا في غرفة نومي . رقبته في حـــبل إلـــي جانـــب الأباجورة وجسده متدليا فوق سريري . وفوق الصـــور عناويـــن مثـــيرة . فحصـــت الخبر . تأكدت من موته من الصـــور. فهذا رجل داهية وقد يفر من الموت . فحصت الصور . هذه غرفة نومي ، وهذا سريري . الدواليب . الكمودينو ..الأباجورة الكبـــيرة . اللوحات المعلقة : كل هذه الأشياء تخصني . تأكدت من موتـــه . حجزت تذكرة طائرة بالتليفون . وللأسف لم ألحق بجنازته التي خرجت من مشرحة زينهم ، وليس من شقته التي هي في حقيقة الأمر شقتي .

ومن قبيل أداء الواجب ، سهرت ليلتها في سرادق العزاء حتى انفض المعزون ، وبقيت وحيدا مع أهله كواحد من العائلة التي صدمت في واحد من أبنائها النابغين .

ومن الغريب أنني كنت طوال الوقت انتظر أن يهل علينا الفقيد ليتقبل العزاء معنا ، لكنه خدعنا جميعا ولم يحضر ، هزمه موته .

الفقيد رجل داهية . عبقري . كيف يموت فؤاد بك ؟ لا بد من رجوعه ، ولحسن حظي لم يرجع في تلك الليلة . تخلف الميت عن المجيء بسبب انشغاله بموته عنا . وكنت طوال الوقت في السرادق أنتظر قدومه .

سألني الرسام عما يضحكني ، قلت شيئا عن أحوال الدنيا . سألتني الدكتورة سلمي ، رويت لها الحكاية من أولها : جئت معزيا وفاتتني جنازته .

منعني وجه الدكتورة سلمى مرجان الباسم من الكذب ، ودفعني لقول الحقيقة ، رأيت عينيها الواسعتين الهادئتين صارحتها بنوازعي السفلية وضعة موقفي ، فعلت ذلك بسبب اتساع عينيها ، كما أنه لا تجوز الشماتة في ميت ، ولا يصح معاتبة ميت علي طريقة موته ، فلا فرق في النهاية بين ميت دهسته سيارة وبين آخر علق نفسه في حبل .

مات أم عاش الرجل ؟ المسألة التي تعنيني : غرفة النوم التي

شـــنق فيها هذا الرجل نفسه ، هي غرفة نومي أنا ، وهذا ما دفعني إلـــي سـبه . لـــو كان شنق نفسه بعيدا عني لما وردت سيرته علي لساني .

وتحدثـــت لأوضـــح للدكتورة سلمى ما دار بيني وبين صديقي المحامي في مكتبه صباح اليوم في إيجاز ، فقد تحادثنا بكلمات قليلة كأنها شفرة سرية ، سألني : عرفت بما جري ؟ قلت : وأديت واجب العزاء .

ابتســـم صـــديقي المحامي ولم يعلق ، ولا شك أن ابتسامته قد أثـــارت فضـــول سلمى . ابتسامة بعد ذكر ميت وواجب عزاء أمر يلفت النظر .

حقـــيقة لم يعلق صديقي المحامي من فرط أدبه ونبله علي موت صاحبنا ولم يشمت ولم يشر إلي قضاياه الغريبة التي كان يشغل بها القضـــاء بدرجاته المختلفة . لكن ابتسامته كانت كافية لإثارة فضول الدكـــتورة ســلمى ودهشتها . وربما صحبتني بعدها إلي الكافيتيريا لتعرف القصة ، وخيبت أملها ولم أتكلم .

قضـــى صاحبنا في نهاية الأمر منتحرا . استراح وأراح . قلل مـــن ذنوبه . نوم الظالم عبادة ، وهذه نومة أبدية . شنق نفسه بحبل في مشنقة أعدها بنفسه ، بعد أن ثبت حبلا متينا إلي جانب الأباجورة الثقـــيلة ، حســـب حســـاباته وصنع جداول لوغاريتمية لقياس متانة

الحبل، وشد العقدة علي رقبته بمعرفته وتوكل .

خبير في علوم الرياضيات والعلوم النووية ، لن يعجز عن شنق نفســه ولــن يــترك فرصة لإنقاذه ، وسفلة الناس والدهماء يشنقون أنفسهم دون دراسات رياضية أو جداول . قضى الرجل ورحمة الله عليه .

الخالص حسب عبقري الهندسة والعلوم النووية حسبته وأفلح ، ولــو كان قضى بعيدا عني ، في شقة واحدة من زوجاته المطلقات ، أو فــي شقة أبيه حضرة وكيل الوزارة السابق كمال بك الأغبر ، أو في شقة واحدة من أخواته البنات ، لما تحملت مشاق السفر .

صوره بعد أن لفظ أنفاسه مفزعة ، رأسه ساقط وعيناه تنظران إلــي وســادتي وملاءة سريري ، وهذه الملاءة واحدة من عدة أطقم فاخــرة أتــت بها زوجتي رحمها الله من بلدها . عيناه والعياذ بالله جاحظتان كأنهما تفحصان ملاءة سريري .

هل تذكرني المهندس فؤاد بك الأغبر قبل أن تطلع روحه ، بعد تأمل ملاءة سريري ؟ لا أظن .

لــم يعرنــي هذا الرجل التفاتا البتة في الماضي ، وفي لحظات طلوع الروح لا بد شغلته عني مسائل أكثر أهمية .

كاتب . صحافي . معلق سياسي . ناقد . ممثل . كلها كائنات لا قــيمة لهــا في نظره . وكان إذا تبسط معي علي باب محكمة أو في

محضـــر شـــرطة وألقي أمامي بكلمتين ، قال : السادات أعظم حاكم عرفته مصر ، والويل للمثقفين الكفرة .

حكايتـــي مـــع هذا الرجل طويلة عريضة : تفاصيلها في ملفات محاضـــر الشرطة ، وفي تحقيقات النيابة ، وأمام المحاكم لمدة سبعة عشر عاما .

مـــن الأفضل عدم مصارحة سلمى بتفاصيل حياة هذا المهندس فـــي يـــوم عيد ميلادها . لكنني تهورت ورويت . هل تكلمت لأنني قبلتها ؟ ربما . كشفت لي عن كنوز ، أفصحت . كلا . ربما رويت بسبب تناولنا العيش والملح منذ قليل . ابتسمت . لو كان الأمر كذلك لمـــا شاع النفاق في الدنيا ، فالناس لا يحلو لها الكذب إلا علي موائد الطعام .

القصد . عرفت الدكتورة سلمي مرجان سر قدومي إلي القاهرة وانـــتهى الأمر . لا كذب ينفع ولا مداورة تفيد . قدمت إلي القاهرة مدفوعـــا بـــنوازع سفلية منحطة ورغبة في انتقام من ميت . قدمت بقلـــب لا يعرف التسامح ، وهذه مصيبة . لم يكن ذهابي إلي سرادق العزاء سوى حيلة دنيئة . رغبة في انتقام من أبيه ، وفي نفس الوقت كنت صاحب فضل ، لعل كبيرهم حضرة وكيل الوزارة السابق يقلل مـــن طغيانه ، أو يشنق نفسه هو الآخر في شقتي وأحضر للعزاء ، أما إذا فعلها كبير العائلة بعيدا عني لن أحضر .

قــتل لهذه العائلة اثنان من الرجال بيد أقارب من الدرجة الثانية والثالثة ، وفي هذه المرة انتحر ثالث الأبناء وفق حساباته الرياضية العلــيا . اختصر الدكتور الطريق وخدع قتلة أخويه ، وذهب بإرادته إلي مملكة الموتى .

مـــا دار فـــي السرادق بعد انتهاء العزاء من أحاديث لا يجوز روايته . القصد . حصلت علي راحتي ، مؤقتا .

انتهيت من قهوتي ، وهذا خامس فنجان لي اليوم ، وتنبهت إلي أن الصور في يدي والدكتورة سلمى تسألني عن رأيي ؟ نظرت إلي بعضها ووقفت ، لم أعد أطيق الجلوس ، سرت في الصالة ، قلت : صـــور جميلة . وكانت الصور جميلة بالفعل ، علي الرغم من أنني رأيتها بعقل غائب .

ذهبت إلي صديقي الرسام في المطبخ . وجدته يغسل الأطباق . ساورني إحساس بأنني قد امتلكت الدكتورة سلمي مرجان بفضل فنه، اقتربــت منه والصابون يغطي يديه ، والماء الساخن يتناثر حوله ، أشرت إلي صورة تظهرها وهي تضع ذراعها علي كتفي وتضحك ، قلت : طريقنا واحد . قال : علي بركة الله .

بعدها ابتسم ابتسامة ماكرة وهو يجفف الأطباق . فهمت رسالته وتضايقت . نحن معارف وأحبة منذ عام ١٩٧٥ . قال مخففا عني : نذهب بعد شرب القهوة لشراء العباءة المغربية .

عدت إلي الصالة والصور في يدي مبتئسا وقد فهمت مقصده ، غالبت مشاعري ، قلت لسلمى ضاحكا نصف ضحكة ، الصور ناقصة ، أين صورة الغداء دون عشب ؟

ضحكت وقالت : تقصد الإفطار علي العشب ؟ قلت بالفم المليان: الغداء دون عشب . قالت : في المرة القادمة تصورنا أنت . علي شريطة .

فهمت ما يدور في رأسها ، وافقتها علي مضض ، أصبحت البنت تسيء بي الظن . معها حق ؟

تطاولت عليها وها هي ترد الصاع . ذهبت إلي المطبخ ، سألت صديقي عن لوحة الإفطار علي العشب لمانيه ، قال : عندك في المكتبة . سألته عن لوحة الجنازة لكوربيه ، قال : عندك في المكتبة. رجعت إلي المكتبة . رمان البلي حول الجدران والغرفة هادئة . تناولت كتابين ، واحدا يضم أعمال مانيه ، والآخر يضم أعمال كوربيه .

سألتني الدكتورة سلمى مرجان عما أبحث ؟ قلت : لوحة الإفطار علي العشب ؟ قالت في استهجان ظاهر: تاني . قلت : لوحة فاتنة . سألتني عن الكتاب الآخر ، قلت : لوحة الجنازة لكوربيه .

ضحكت سلمى هذه المرة ، وسألتني : لتتأمل الجنازة أم لتبحث عن الكلب ؟

سألتها ، تعرف هذه اللوحة ؟ قالت ، وتعلقها علي مكتبها ؟

تناولـــت الكتابيـــن منـــي وفي دقائق كانت لوحة الإفطار علي العشـــب أمامـــنا مفرودة إلي جانب لوحة الجنازة . قالت : انظر ، ووضـــعت يدها علي الكلب ، أما أنا فكانت تشدني الحسناء العارية تمامـــا الجالســـة علـــي العشب وسط مجموعة رجال في زي أسود رسمي .

نظـــرت إلـــي ســـلمى وهي منحنية علي الكتابين ، رأيتها تقف عاريـــة وتسألني عن الكلب . وسمعتها تنطق بكلمة الكلب . فقت من خيالاتـــي المخجلة ، بينما كان صديقي يجر قدميه ويقول : في المرة القادمـــة ، الغداء علي العشب في قرية القرنة ، هناك في الأقصر ، وافقته سلمى . أما أنا فكنت مشغولا بالكلب .

٥

- النداء الكاذب -

أخذتنا الدكتورة سلمى في سيارتها إلي منطقة الحسين المزدحمة. تقود السيارة في مهارة وتحادثنا وتعلق علي أغنية لمحمد عبد الوهاب ، تأتي من مذياع السيارة الذي تركته في البداية مفتوحا، ولما انتهت الأغنية أغلقته بطريقة عفوية دون سؤالنا .

قبل أن أطلب منها فتح المذياع ثانية لسماع نشرة أخبار الساعة الخامسة ، وضعت شريط كاسيت في الجهاز ، وسمعت صوت محمد عبد الوهاب في أغنية حلوة أخرى ، وسماع أغنية قديمة لمحمد عبد الوهاب أفضل من سماع نشرة الأخبار هذه الأيام .

امرأة تري وتسمع وتفكر وتتصرف بيديها وقدميها وتقول بلسانها وتحب أغاني عبد الوهاب القديمة . جلست إلي جوارها صامتا حتى لا أعطلها عن القيادة وعن سماع عبد الوهاب . جمعت شذرات يومي الحافل منذ لقائي بوكيل الوزارة السابق في الصباح المبكر ، وحديثنا الحزين عن مقتل ابنه ، وتهديداته المبطنة ، وذهابي إلي مكتب المحامي ولقائي بالدكتورة سلمى مرجان ،

وزيارتنا لصديقي الرسام .

يوم حافل ، أعيد سماع ما سمعته وما قلته وما فعلته . سرحت. وهــذه عادتي عند ركوب سيارة أو قطار . لا أشغل نفسي بطريق ، ولا أري ما يجري أمامي ، كما أن منطقة باب اللوق وعابدين تبدلت أحوالهـــا ، شوارع فتحت وأخري أصبحت في اتجاه واحد ، كباري علويـــة شـــيدت ، اختلطت الطرق علي ، سألت : طريقنا الحسين يا سادة أم السيدة زينب ؟

ضـــحكت سلمى ، وتجاهل صديقي سؤالي . بعد قليل تبينت أننا نـــنطلق إلـــي شارع الأزهر . استرحت ، أود شراء عباءة مغربية ملوكي فخمة للدكتورة سلمى مرجان كهدية عيد ميلادها ، وفي نيتي. توقفـــت عن التفكير وعن الكلام ، بسبب أتوبيس مندفع في الطريق الخطأ كاد يقضي علينا .

ثـــارت ســـلمى ، سبت السائق بألفاظ من العيار الثقيل ، بعدها قالـــت ، إنها من السيدة زينب ، وهذه النوعية من الرجال في حاجة إلـــي تربية . وافقتها ، وعلق صديقنا من جلسته في المقعد الخلفي ، قال : الحق علي الحكومة .

ضحكت من قلبي لقوله ، ولم أقل له الحكومة مسكينة .

في محل الترزي المغربي العجوز في الحسين ، ركبت الدكتورة ســـلمي مرجان رأسها ، ورفضت قياس العباءة . طوال الوقت أعتقد

أنهـــا قدمـــت معـــنا لشراء هدية من هذا المحل المغربي ، وأن ذلك يسعدها ، وعند قدومنا رفضت .

تحملنا عبء هذه الرحلة ، وتعرضنا للموت ، وغيرت الدكتورة سـلمى رأيهـا ، صـدمني سـلوكها الغريب المفاجئ ، ورأيت فيه استهتارا ، خجلت من نفسي ومن اندفاعي ، وتتضايق البائع ، العباءة لقطة . الوحيد بيننا الذي لم يهتم برفضها صديقي الرسام .

توجهنا إلي المحل في شارع جانبي متفرع من شارع الأزهر . ركنـت سلمى سيارتها بصعوبة . ورحب بنا الترزي المغربي الذي كـان يعـرف صديقنا الفنان معرفة طيبة ، وبان ذلك من حديثهما . اختارت الدكتورة سلمي عباءة من مجموعة عباءات نصحنا الترزي بهـا . فحصت العباءات بدقة باللمس وتأمل الألوان وخيوط التطريز المذهـبة ثـم اختارت هذه عباءة . قالت : تطريزها شيك . النسيج فاخر . ألوانها موضة .

طلبت منها لبس العباءة رفضت وخذلتني .

رفضت سلمى وضع العباءة عليها ، وحرمتني من تأمل قوامها الرشـيق الفارع بالعباءة . وأخذت تردد علي مسامعي كي تغيظني ، كلما ذكرتها بعيد ميلادها ، وهي تضحك : ولو .

وكمـا يضـع صـديقي كلمـة طبعا علي طرف لسانه دوما ، وضعت الدكتورة سلمي ، ونحن في المحل ، كلمة : ولو علي طرف

لسانها هي الأخرى .

طفلة ركبت رأسها وتعاند ، ماذا أفعل ؟ لا حيلة لي ، اشتريت العباءة دون أن تقيسها ، وتحملت بمفردي عبء حملها ، وكنا في طريقنا إلي المقهى وهما يتقدماني . يتحدثان . يتأملان المحلات ، يسيران علي حريتهما ، لا ثقل يضايقهما ، وأسير خلفيهما كتابع أئن تحت ثقل العباءة ، أنقلها من ذراع إلي آخر كل عدة دقائق ولا فائدة.

تخلي صديقي عني في هذه المحنة مرتين : في محل الترزي لم يحاول إقناعها بقياس العباءة ، من أجلي وأنا صديقه منذ عام ١٩٧٥ وفي الطريق تركني أحمل العباءة بمفردي .

ضايقني تصرفها الذي رأيته طفوليا ، قلت : ربما ترفض الملابس المغربية التقليدية حتى لو كانت موضة .

بعدها قلت ، امرأة لا تقبل هدية من رجل غريب . امرأة شرقية. كيف فاتني هذا الأمر؟ وكيف تجاسرت علي شراء هدية لها غالية الثمن ، وأنا معرفتي بها لا تتعدى عدة ساعات ، هذه قلة ذوق مني .

ربما تظن الحسناء أنني أسعى إلي شرائها بمالي وهذه مصيبة بنات هذه الأيام . كما أنني لست غنيا كما تتصور . قلت غاضبا في عقل بالي : عقلية جواري . كل شيء عندهن يري بمنظار البيع والشراء . قلت : كل النساء عبيد . أفسدت هذه السيدة فرحتي

بالمجـــيء إلـــي حـــي الحسين ، وأنا القادم من السفر متعب الجسد والروح .

لا تقـدر هـــذه المـــرأة فرحتي بالقدوم إلي هذه المنطقة وشراء عـــباءة ، هـــذه قسوة . قلت : لتطر من النافذة أو من فوق كوبري علوي . وندمت لتمزيقي كم الجاكت الفستقي .

أكثر ما ضايقني في المقهى بعد ذلك ، أنها أخبرتني وفي برود تـــام ، أنهـــا كانت طوال ساعات النهار تعتقد أنني أود شراء عباءة مغربية لفتاة أخري ، وأنها قدمت لمعاونتي في شراء الهدية ، وإنها لم تظن للحظة واحدة أنني سوف أشتري لها عباءة ثمينة بسبب بخلي الظاهـــر ، وســـوء هندامـــي . بدلتي أثرية تعود إلي الخمسينات ، قميضـــي كـــالح ألوانه ضاعت وياقته تهرأت والكرافات مثل قطعة الحبل المبروم . حذائي مفتوح من الأمام والخلف كالمركب ؟ شعري مـــنكوش . عـــدم اهتمامي بملابسى ظاهر للعين ، فكيف أشتري لها عباءة ؟

بعدهـــا ترفقـــت بي ، قالت : لماذا لا تكون هديتي بلوزة قطنية رخيصـــة تزينها رسومات فرعونية بدلا من عباءة غالية الثمن ؟ أو زجاجـــة عطر صناعة محلية من ماركة "" قسا الكلاب "" مثلا ؟ أو عقد فل كما فعلت في الصباح ؟

ضحكت غصبا عني من أقوالها ، فأنا فعلا هندامي غير مرتب

أما حكاية البخل هذه فليست صحيحة ، ربما هو شبح روحي أصابني بسـبب غربتي . وسامحتها لما أضحكتنا بقولها زجاجة عطر ماركة " فســا الكـــلاب " . تذكرت سلمى زجاجات العطر المحلية ونسيت شــربة الحـــاج داود التــي تنزل الدود . لا مانع . في المرة القادمة أشــتري لها زجاجة فنيك بالخل . الفنيك بالخل رائحته تقلب المعدة وتجلب القيء. ولم أقل إنني اشتريت العباءة لأحرق ملابسها . ألفها بالعــباءة . أستر جسدها . أحميها من البرد . وأقول لها وهي تضع العباءة : يا أميرتي .

الصبر .

ألومها بنظراتي وكلماتي القليلة التي أرمي بها كدبابيس . أتأمل العــباءة التــي وضــعتها أمامــي علي مائدة جانبية خالية ، أفحص نســيجها. أتوقف عند حلاوة ألوانها . أقول شيئا مقتضبا ، فترد علي قائلة : ولو يا عزيزي .

بعــد فــترة تضايقت من كثرة حديثي عن العباءة ، وقد فسدت جلســتنا ، بعــد أن جئنا لنحتفل بعيد ميلادها . رأيت أنني قد أثقلت علــيها وأزعجــتها بإلحاحي وسخف أقوالي ، وهذا لا يصح ، فهي حرة في هندامها ، وكنت قد ضايقتها بالفعل .

امــرأة لا تــود لــبس عباءة مغربية ، هي حرة . امرأة يمنعها الخجــل مــن تقبل هدية من رجل غريب ، حسنا تفعل بمقاييس هذا

الزمان . لأتركها في حالها مع تلك البلوزة التي تكشف عن ذراعيها عـند الكتف ، لتقاسي من لسعة برد بدأت تشتد ، بعد أن مزقت كم الجاكت .

ذراعـان بضتان جميلتان ، لا تناسبهما بلوزة خفيفة شفافة في موسـم الشتاء . وكنت في المرسم بعد الظهر قد رأيت باطن قدمها وكعبها ، وتأملت أصابعها الطويلة ، وتلك الوحمة في يدها اليسرى ، ووجدتهـا وحمـة حقيقـية كبيرة ، ورأيت قرب العصر هذه المرأة صـادقة فـيما تـنطق وقلبها لا يعرف الكذب . صدقت أننا قد أتينا لشراء عباءة .

حذرنـي صديقي الفنان بطريقة خفية قبل خروجنا بقوله : لبس العباءات مزاج ، وظننته يمزح معي .

قالـت لي الدكتورة سلمي لتخفف عني : هذا شيء عادي . بعد الظهـر قبلت الهدية ، وفي المساء رفضتها ، غيرت رأيي . وزادت ونصـحتني بتقـبل حقـائق الحياة وإلا . . وأشارت بيدها تحذرني بعظائم الأمور .

كـيف تتحدث بهذه الطريقة ؟ تسخر . تنصح . تحذر . تهدد . هـل أنـا ألعوبة ؟ التعلق بالنساء يقل القيمة ، سألتها في خبث ، هل تتقبل هذه الهدية في الليل ؟

زعمـت أنها تتخذ قراراتها وفق حالتها المزاجية ، ومن لحظة

إلـــي أخري تتبدل حالتها المزاجية . ما ترفضه في الصباح قد تتقبله في الليل .

يا للمصيبة ، قلت لها في كلمات فظة ، الدكتورة سلمى مرجان امـــرأة متقلبة . تذم اليوم ما مدحته أمس . امرأة لا رأي لها . وإذا كان ذلك مسلكها في الأمور السياسية فعلى الدنيا السلام .

لـــم تهتز لنقدي وضحكت ، وبعدها سألتني في سخرية ، كيف تكتب وأنت لا تعرف حميمية اللحظة المعاشة واختلافها عن اللحظة التالية ؟ وأكملت الدكتورة سلمى في خبث قائلة :

ـــ كنت أظنك الوحيد الذي يفهمني ؟

دخلنا في سوق السفسطة . مديح ظاهر باطنه ذم وسخرية .. هذه الحســناء الجالســـة أمامي لا تستحق سوي زجاجة عطر ماركة فسا الكـــلاب ، وفي أحسن الأحوال زجاجة فنيك . وأصبحت لا أصدقها عـــندما تقـــول ، إنها لا تحب العباءات المغربية التي غزت أسواق الشرق والغرب . وإنها تكره الجري وراء الموضة موت .

باختصـــار لم تتقبل الدكتورة سلمي مرجان هديتي . ولما سألت صـــديقي بعد ذهابها إلي الحمام ، عن سر عنادها المفاجئ ، قال لي فـــي بـــرود : طبعا ترفض . وبعدها سألني في لؤم ، أنت متأكد أن اليوم ١٢ إبريل عيد ميلادها ؟

لماذا يتشكك صديقي الرسام في عيد ميلادها ؟ .

وجـــدت الأمـــر محيرا ، هل تكذب سلمى ؟ ابتسم وشغل نفسه عني بالحديث إلي الباعة . باعة كتب . باعة عاديات . باعة توابل . باعة فضيات . باعة من كل لون وصنف . وهو رجل يعرف معظم تجـــار المحلات وأصحاب الورش في المنطقة وله تعاملات معهم ، ألقي بسؤاله وتركني لهواجسي وانشغل بهم عني ، ولم انتظر منه أن يتصرف معي علي هذا النحو . إذا لم يكن اليوم ١٢ إبريل يوم عيد ميلادها ؟ فمتي عيد ميلادها ؟

فـــتح صـــديقي الرسام طريق جهنم وتركني . يحادث باعة عن قصـــد . يشغل نفسه عني . يهرب مني . معه حق ، فمنذ قدومي لم أتوقف عن إثارة المشاكل . تعب . سامحته . رسام ويشغل نفسه بما لا أراه : الهدية علي المائدة وليس أمامي سوى الدوران بها من فندق إلي آخر طوال إقامتي في القاهرة .

شـــربنا الشـــاي الأخضر للمرة الثانية ، الذي زعمت الدكتورة ســـلمى إنهـــا تحـــبه موت ، وتأتي إلي هذه المنطقة من أجله ، ولم تفصـــح أمامنا عما إذا كانت تحب هذا الشاي الأخضر موت طوال اليوم أم في هذه الساعة فقط .

بعدهـــا أخرج الرسام من جيبه عدة أحجار كريمة ، قال : هدية عيد الميلاد .

فحصـــت الدكتورة سلمي الأحجار الكريمة بعين تفهم ، وعلقت

علي أحجامها وألوانها . اختارت حجرا منها . قالت : هذا يناسبها وتعرف أين تضعه . وشكرته .

فـرحة الدكـتورة سلمى بالحجر الفستقي ظاهرة ، تارة تضعه علي خاتم في إصبعها ، وتارة تضعه علي عقد في صدرها . فرحتها تماثل فرحتها بالبالونتين في الصباح .

تقبلـت الدكتورة سلمى هدية الرسام ، ورفضت قياس هديتي . قلـت : صـديق عمر . وحسنا فعل بتقديمه هدية تروقها ، بدلا من هديتي التي أزعجتها .

أخـيرا عـرف قلـب الدكتورة سلمى الفرح ، تبتسم كطفلة . تضحك كفتاة لا يشغلها هم ولا مسؤوليات . أسعدني مسلكها ، حقق صـديقي الرسام ما فشلت في تحقيقه ، علي الرغم من تلميحاته بأن اليوم ليس عيد ميلادها .

١٢ إبريل عيد ميلادها أم لا ؟لا يهم .

ربمـا هذا الحجر الكريم الفستقي عربون رسم لوحة بالألوان . رأيـت نشأة صداقتهما ، ولمحت ذلك في عينيها . وجدت الدكتورة سـلمى حكـيما يـنفعها فـي دنياها بعد سفري . وجدت فنانا يضع صورتها علي جدران المتاحف مثل المشاهير .

هـل أري صـورتها وهـي بالعباءة المغربية ، في متحف من المـتاحف العالمـية ؟ لا أعرف . وربما قرب منتصف الليل تغير

رأيهـــا مـــن مسألة التصوير ، وتزعم أنها تكره الجلوس أمام رسام بالساعات للتحديق في ملامحها .

فـــي هـــذا المقهى الشهير تدهمني هواجسي الخاصة ، أري ما نسيته في غمار سنوات الغربة وأتذكر ما عذبني طوال سنين حياتي فـــي القاهرة المحروسة . كم من مرة جئت إلي هذا المقهى وسمعت أنباء مصائب وهزائم ؟

قالت سلمى وهي تنظر في عيني :

ـــ لا أحب البكاء علي اللبن المسكوب .

حسناء تتدلل وتدعي الحكمة وافقتها .

المـــيدان يعـــج بحركة وضجة ، الناس ترمح ، وأنا في أيامي العادية لا أهتم بما يفوتني ، أتقبل ما يجري حولي عن طيب خاطر ، لا أرمـــح وراء شـــيء ، وبعـــد ظهر اليوم في المرسم ظننت أنني وجدت بغيتي ، وأن الدكتورة سلمى والعبد لله نبيل سعيد يتحدثان لغة واحـــدة ، وفي المساء في محل الترزي المغربي ، تبينت أن سلمى تتحدث إلينا بلغة مختلفة ، وبعد آذان المغرب في المقهى ، تأكدت أن المسألة تجاوزت اللغة ومست المفاهيم ، وأنها تكذب ، وأن اليوم ١٢ إبريل ليس بعيد ميلادها ، بل هو عيد طلاقها ، وقالت لي ذلك همسا بعضمة لسانها ، ولم يهتز لها رمش ولم تجفل لها عين .. أي والله، عيد طلاقها ؟

خدعتنا سلمى وسحبتنا وراءها إلي منطقة الحسين لنحتفل معها ب .. جرجرتـــنا حواء لأمر يخصها ، غالبت مشاعري ، قلت، في الـتذكر رحمـــة ، فلســفت المسألة ، قلت ، الناس تحتفل بالذكري السنوية للميت ، ولأخفف من ضيقي ، قلت ، ربما تقبلت مني عقود الفــل والــبالونات فـــي الصباح ، لنشاركها هذه المناسبة ، ولأبرر تصـــرفاتها معـــنا ، وأضعها في نسق مقبول ، قلت ، تركتني أمزق الجاكت في الصباح ، لترفض في المساء هديتي .

في نهاية الأمر ، قلت ، وأنا لن أخذلها ، لنحتفل بعيد طلاقها ، ابتســمت . طلاقهـــا لا يضايقني بل يسرنـي ، وإذا طلبت منا الدعاء علـــي ذلـــك الـــرجل الـــذي طلقها وكسر نفسها في ريعان شبابها ، ليقصف الله عمره ، ويسد باب الرزق في وجهه ، توجهنا إلي مسجد سيدنا الحسين ، وتمنينا إصابته بكل فيروسات الأرض غير المعروفة وبالسرطان ، وبشيزوفرانيا تذهب بعقله ، وبعد الدعاء لا يتبقى سوى ضـــربه بالأحذيـــة ، نفعل ذلك وأكثر منه إذا أرادت ، ولكن .. أن تكذب ، وفي اليوم الأول لتعارفنا ، هذه مسألة مقلقة للغاية .

يضـــايقني أنني سرت وراءها وأنا الرجل المجرب ، غنيت لها بصـــوتي الضـــعيف ، عيد ميلاد سعيد يا جميل حتى انقطع نفسي ، وأخيرا أجلس إلي جوارها في الليل في مقاهي سيدنا الحسين ، أحمل عباءة ، في يوم يصادف عيد طلاقها .. متي تتعلم يا نبيل سعيد ؟ .

يبدو أن الوقت قد فات ، وقضي الأمر .

امــرأة تحــتفل بعيد طلاقها ، لا تثريب ولا مانع ، هي حرة ، ولكن ليس من العدل خداع الآخرين ، قلت ، ربما أخفت النبأ رحمة بي ، فهي بالفعل مناسبة حزينة ، لكن نساء هذه الأيام ، والمتعلمات منهــن خاصة ، يجدن في الطلاق مولدهن . وعرفت من النساء في الشرق والغرب من تحسنت حالاتهن بعد الطلاق .

تقبلــت الأمر ولم يستمر ضيقي طويلا . حسنا فعلت بطلاقها ، وأنــا لا يســرني تقديم هدية في ذكري يوم أسود . استرحت . وهل يعقــل أن تقول امرأة لرفيقاتها ورفاقها إنها تسلمت هدية في ذكري يوم طلاقها ؟ لا يجوز .

خلاصـــة الأمر ، سلمى مطلقة ، وفي حاجة إلي معارف ، كما أنني لن أفتقدها الليلة بسبب تغير ألوان ملابسها تحت الإضاءة الليلة. مال لون البلوزة إلي سواد ، وأصبحت أكثر حشمة .

أحمــد الله أننــي عرفت ذلك كله في اليوم الأول لتعارفنا ، يوم الأربعـاء الثانـــي عشر من إبريل ، الموافق ذكري طلاق الدكتورة ســلمى مــرجان من زوجها الأول أو الثاني أو الأخير ، فقد تكتمت أخبار هذا المحروس ، وأنا من جانبي اختصرت الطريق ولم أسألها عن اسمه أو مهنته .

للخروج من هذا المأزق في المرات القادمة ، قررت عدم القدوم

إلـــي القاهــرة في شهر إبريل أو علي الأقل في النصف الأول من إبــريل من كل عام ، حتّى إذا شنق كمال بك الأغبر نفسه في غرفة نومي ، كما فعل ابنه منذ عدة أيام . لن أحضر إلي القاهرة في شهر إبــريل . شهر إبريل يبدأ بكذبة شهيرة وقرب منتصفه طلاق ، ولن أتحمل مشقة السفر إلي القاهرة من أجل كذبة أو طلاق ؟

ابتســمت لهذا الرأي ، بعد أن تضايقت بعض الشيء لطلاقها ، ربمـا مــن قبيل المجاملة ، حذرتني سلمى من الحديث في السياسة بقولها : جيل هزيمة ٦٧ لا يحق له الحديث في السياسة ، فهل أقول لها المطلقات لا يحق لهن الحديث في السياسة ؟ هذه نقرة وتلك نقرة أخري . تحرمني الدكتورة سلمى من الحديث في السياسة ، لنتحدث في الشعر ، سافرت إلي أمريكا وفرنسا لدراسة تأثير ابن عربي علي شعراء أمريكيين . لو كانت سألتني قبل سفرها عن حركة الشعر في أمريكا ، كنت طلبت منها ترك مسألة الشعر ودراسة وليام فولكنر .

العباءة في حقيبة لها مقبض حاد جرح باطن يدي ، ثقل الحقيبة شــد عضلات رقبتي . إذا قبلتني الدكتورة سلمى الليلة أمد لها فمي من بعيد مثل ذكر البط . قلت : لن أقبلها الليلة مثل ذكر البط أو أبو قردان عقابا لها .

تطــوح حقيبــتها . امرأة مطلقة في ساعة غبطة . امرأة تتذكر ساعة طلاقها ، أما أنا فباطن يدي ينز دما ، ما لي بها ؟

شـــابة حسـنـاء مطلقة ترفض هديتي وتحرمني من الثرثرة في السياســة ، مــا لي بها ؟ هذا ظلم . ليس من العدل بهدلتي علي هذا النحو .

وضعت الحقيبة علي حجر بارز في الطريق وتوقفت . حرنت كالبغل . وددت أن أقول لها ، هذا صباح جديد يا سلمى ، انتهي يوم ال ١٢ إبــريل عند منتصف الليل ، لكنني تشاءمت من رقم ١٣ ولم أتجاسر علي مفاتحتها فيما روته عن طلاقها .

صــديقي عنده متاعب في الركبة ، يشد جسده في وهن . وهي شبابها يسعفها ، امرأة تود احتفالا علي طريقتها الخاصة ، السير في شــوارع القاهرة ليلا ، لتسمع أصوات المكان بعيدا عن ضجة الناس كما تزعم . المدينة التاريخية تناسبها . حقيقة المنطقة لها سحرها في الليل ، ولكن .. ليس هكذا يسمع النداء .

توقفت والسير بغيتي . صديقي الرسام يسير في الخلف ، وهي تســبقنا بعدة خطوات ، تارة تغني ، وتارة تردد أشعارا . تقودنا من شــارع إلي حارة ، وتخرج بنا من أزقة إلي شوارع . تعرف خفايا المنطقة ، وتوقفت عند سيارتها وفتحتها وتناولت عدة بلوفرات ثقيلة وضعتها عليها واحدا فوق الآخر .

امرأة استعدت للسهر وجاءت في الليل لترعي ممتلكاتها ، ربما تمــتلك وكالة أو قصرا في هذه المنطقة . ربما هي سليلة واحدة من

العــائلات التاريخــية المندثرة في سجلات الأوقاف ، عائلة أغا أو قــلاووظ أو الأكبر ، وجاءت تتفرج علي ملك ذهب ، وجاه ولى . تغنــي شيئا ثم تردد شعرا ، إضاءة شاحبة مرتعشة غزت المنطقة ، ولســعة بــرد حادة تصفعنا . وضايقتني الإضاءة الشاحبة أكثر من الرطوبة ولسعة البرد . فردت سلمى ياقة البلوزة الطويلة التي أخذت نسمات الصباح تطيرها ، وثبتتها حول رقبتها .

وتحت عامود نور رأيت قسمات وجهها تغيرت . شفتاها تهدلتا فجــأة . دمعــة في عينها . سقط رأسها وتدلي كما سقط رأس نابغة زمانــه في غرفة نومي . وحدث ذلك كله فجأة لما سألتها عن الشيخ إمام ، وطريقة رحيله عن دنيانا . نهاية الحفل ليست مبهجة . افترقنا علي لقاء . سألني سائق التاكسي عما يضحكني ، قلت : كنت شاهدا علــي طلاق في هذه الساعة ، سألني : خلع . قلت : طلاق عادي . قال : أبغض الحلال عند الله الطلاق .

وافقته .

٦
المرأة النائمة –

دعتني الدكتورة سلمى إلي زيارتها .

الصالون من الصالونات الراقية . سجادة فارسي قديمة تمتد من الصالون إلي الصالة . المائدة الصغيرة وسط الصالون حوافها وقواعد أرجلها مزينة بنقوش فارسية .

موسيقى خفيفة تنبعث من سماعات صغيرة في ركن الصالون . تضايقني هذه الموسيقى وتذكرني بموسيقى محلات الطعام السريع أو محال الكوافير الرخيصة ، ولا تتناسب مع جمال أثاث الصالون .

تململت في جلستي وبان ضيقي . نغمات تدغدغ الحواس ولا تخاطب العقل . موسيقى فجة لا تليق بجلستنا . قرع طبول وصفير آلات غريبة ووتريات تلعب في مقامات غير معروفة لي . موسيقي ليست صينية وليست هندية وليست يابانية . احترت . تغاضيت عن الموسيقى . أغلقت أذني أمام الألحان والإيقاعات وفتحت عيني

لـــرؤية قوام سلمي الممشوق وهي تدور ، هذه الألحان الخفيفة مثل سندوتشات الهامبورجر ، لا تشبع ولا تسد النفس ، وبعد فترة أخذت تتسلل إلي نغمة وراء نغمة ونقرة وراء نقرة .

قالــت الدكــتورة سلمي ، بينما هي واقفة ، وتنظر في عيني ، طــبعا لا تحــب هذه الموسيقي؟ هززت رأسي بالإيجاب . قالت : حاول .

بعد سماعي ، لم أقل لسلمى إنني أحببت إيقاعات ومقامات هذه الموسيقي الغريبة . ورويت لها قصة طويلة عريضة ملفقة عن واحد مــن رفاقي المشتغلين بالموسيقي ، لم يمت مثل صاحبنا السويسري هانــز فوجلــي علــي جبال الألب بسبب أسلاك الضغط الكهربائي العالــي، ومــات فــي شــقته في شبرا بعد سماعه مقامات غريبة . المقامات الموسيقية الفجة مثل أسلاك الضغط العالي تقصف العمر .

وهذه قصة حقيقية لكنني لما تذكرتها في صالون الدكتورة سلمى مرجان بعد خمسين عاما وجدتها خرافية وغير معقولة ، وعجبت من تذكــري لتفاصيل دقيقة كنت أظن أنني نسيتها بفعل السنين ، لكنني تذكرتها في حضرة الدكتورة سلمى ، ورويتها كما خبرتها في نهاية سنوات الخمسينات وأنا رجل ضعيف الذاكرة واعتمد علي أوراقي ، لكننــي تذكــرت . وهــي حكاية معقدة للغاية إلي جانب غرابتها ، وانقسمت الآراء حولها، وتشيعت في ذلك الحين للجانب الخرافي فيها

للأسف الشديد ..

مـــن عادتي التحيز مثل المؤرخين الرسميين ، وهذه المرة في حضرة الدكتورة سلمى مرجان لم أكن متحيزا ، رويت فقط . الحب والتحيز صنوان ، وأجمل الشعر أكذبه ، وفي هذه الحكاية بالتحديد لم أكذب .

انتهيت من حكاية الموسيقي البارز الذي قتلته مقامات غريبة ، وانتقلـــت إلـــي حكاية أخرى ، قلت : كنت قي زيارة صديق شاعر ومـــترجم . وجدت عنده قصيدة كتبها عام ١٩٩٧ ، قبل نهاية القرن بـــثلاث سنوات ، أعجبتني القصيدة وطلبت نسخة، قلت له : قصيدة جميلة . كتب لي نسخة بخط جميل ، وأعطاني إياها وهو يضحك : بعدهـــا ســـألني عن رأيي في القصيدة ، والشعراء لا يكتفون بسماع المديـــح مرة واحدة ، ويلحون ، قلت : أعطيها إلي صديقة لتترجمها إلي الفرنسية . ضحك ثانية ، وسألني : هل صديقتي جميلة ؟ قلت : فاتنة ؟ سألني هل أحبها ؟ قلت : طبعا . نصحني بعدم إطلاعها علي القصيدة ؟

كنـــت أتعلق بسلمي ولم أعمل بنصيحة صديقي وأطلعتها علي القصـــيدة . طلبت منها الجلوس وناولتها القصيدة . قرأتها ، قالت : قصـــيدة جمـــيلة بـــالفعل . قصـــيدة جميلة ، طلبت منها ترجمتها . رفضـــت. ســـألتها هل تعرف صاحبها ؟ ترددت في القول ، وبعدها

قالت : ربما .

وقفـت وجلسـت فـي حـيرة ، تقول قصيدة جميلة وترفض ترجمـتها، لمـاذا ؟ هذه القصيدة ليست عباءة ترفض قياسها ؟ هل تعـرف صديقي الشاعر أم لا تعرفه ؟ إجابتها مراوغة ، ربما تعرفه وتحفظ هذه القصيدة .

بدأت سلمى تخفي أشياء ، وتحدثني في حذر .. القصد ، أبيات القصيدة تعلق بذهني ، وأنا رجل أحب الشعر ، رددتها كاملة ، قالت سـلمى مـرة أخـري : قصيدة جميلة . ولم تعرض ترجمتها ، ولم يضـايقني ذلـك هـذه المرة ، إذا شرعت في ترجمتها قدمتها إلي صـديقي ، كما قدمتها إلي صديقي الرسام الذي شرع في رسم لوحة زيتـية لهـا كمـا أخبرتني في التليفون أمس ، وسألتني هل تقبل أم تـرفض ؟ وأي ملابـس تـرتدي ؟ طلبت رأيي ووافقت ، لكنني لم أتطـرق إلـي مسـألة الملابس ، هذه مهمة الفنان . والفنانون عادة يتركون ذلك لدراما اللوحة وحبكة الألوان ومساحات الظل والضوء.

أعدت علي مسامعها القصيدة مرة أخرى ، بيتا بيتا ،

امرأة جميلة

كان الزمن خاليا من الشعر ،

فأحبت امرأة جميلة أن تكتب قصيدة ،

من بيتين اثنين .

تجردت من ثيابها

وانتحرت عارية .

النائب العام ، حارس مملكة الضجر ،

لا يحب الشعر ،

ولم ترق له هذه القصيدة بالذات .

تجمع الناس حول الوردة النائمة ،

واستولي عليهم الأرق .

النائب العام وحده هو الذي نام ،

بعد أن وقف أمام المرآة وقال :

لكن هذا فعل علني فاضح ؟

امرأة تجردت من ثيابها وماتت ، انتهى أمرها ، جسدها البض تحـــول إلـــي جثمان ساكن . لا فتنة ولا إغراء . تراب . أين الفعل الفاضح ؟

كلـــنا نرتكب هذا الفعل الفاضح يوميا ولا نموت . نبدل ملابسنا أو نستحم أو نقف أمام المرآة نراقب أمراضنا أو نقيس فتنتنا . نحن جريمتنا أعظم لأننا نتجرد من ثيابنا ولا نسدد ثمن فعلتنا : الموت .

تمنيـــت مـــوت نصف الشعراء علي الأقل في هذا البلد بسبب بلادتهـــم . ضـــحكت . أربعة أخماس شعراء العالم يستحقون الموت أيضـــا في عصر العولمة . لا توجد قصيدة في العالم تبز قصيدة ""

لا تصالح "" لأمل دنقل ، وهذه القصيدة ؟ شعراؤنا المحدثون يشغلهم التكالب على تفايات مائدة الحداثة الوهمية بسبب قلة العقل وبلادة الحس والعياذ بالله .

أعجبت قراءتي للقصيدة الدكتورة سلمى إلي حد الطرب . ورأيت ذلك في عينيها ، وفي اهتزازات جسدها ، سألتني ، عما إذا كنت أكتب الشعر ؟ ابتسمت . قلت : أنقده فقط . وأخفيت عنها اسم صاحب القصيدة . ولم أصارحها برأيي في تدهور حركة الشعر في العالم العربي .

تظن سلمى أنني صاحب هذه القصيدة وهذا حسن ظن بي . وأنا لو كان في مقدوري كتابة قصيدة جميلة مثل هذه القصيدة ، كنت أطلعتها عليها فورا، بغض النظر عن مسألة انتحار البطلة ، انتحار الشعراء بسبب الشعر ليس مؤكدا ، وأنا كتبت الشعر سرا في صباي ولم انتحر ، وإذا كتبته هذه الأيام لن أنتحر أيضا ...

قالت سلمى دون مناسبة ، إنها تعمل بالنقد وتعرف معظم الشعراء ، وإذا أرادت كتابة قصيدة ، فعلت مثل هذه المرأة : تجردت من ثيابها وانتحرت .

ماذا تقصد سلمى بقولها تعرف معظم الشعراء ؟ هل تعرف صديقي الشاعر أم سبق لها قراءة القصيدة ؟ ساورتني شكوك ، إذا اكتشفت أنها تعرف صديقي الشاعر سوف أفسد علاقتهما بمعسول

الكلام . أحدثها كما يحدثني كمال بك صاحب العمارة . ألقي بكلمات منفردة وأكملها بالصمت .

زعمت سلمي إنها ترفض ترجمة القصيدة بسبب كونها امرأة . ومن تترجم هذه القصيدة أو تنشرها مآلها الانتحار . وأشارت فجأة إلي رجل العلم الذي انتحر في شقتي ، وزعمت أنه شاعر متوسط الموهبة وذكي إلي درجة مرعبة، وإلا لما شنق نفسه . وكررت قولها إن الأذكياء فقط هم الذين يقبلون علي الانتحار . وأكدت علي أن الأذكياء ينتحرون عندما يخونهم الشعر وتستعصي بحوره . ثم أضافت ، ولأنها امرأة ذكية لن تترجم القصيدة . قالت ذلك كله وهي تبتسم وتغمز بعينها وتهز صدرها وكأنها تفخر بذكائها .

فهمت سلمى القصيدة علي وجهها الصحيح : امرأة كتبت شعرا، لا يهم الموت بعد ذلك .

تؤرقني مسألة موت الشعر في العصر الحديث ، فهذه المسألة تختلف عن المزاعم القائلة بموت التاريخ ، فتلك الأخيرة أكذوبة قراح من أكاذيب العولمة . ومناقشة قضايا الشعر مع امرأة مثل سلمى ليست سهلة ، تسألني عن مراجعي وتفحمني قبل أن أنطق ، ربما الحديث مع صاحب العمارة المهندس كمال بك الأغبر بخصوص شقتي المغتصبة أسهل من فتح باب الشعر معها .

سلمى تفهم في قضايا الشعر كما أفهم أنا في قضايا العولمة

وتأسيس منظمة التجارة العالمية والنظام العالمي الجديد . فهل توافقني علي هذه المصيبة : موت الشعر ؟

بدلا من الحديث عن موت الشعر ، أخذنا الحديث عن موت البشر ، وهذه تختلف كلية عن موت الشعر ، وكنت قلقا بسبب أقوال المهندس كمال بك الأغبر لي ، وتبعدني أقواله عن حديث الشعر مع الأميرة ، كما أن تلك الألحان الغريبة فيها دعوة للانتحار أو التفكير في الموت علي الأقل ، ومن حرصي علي الحفاظ علي جمال هذه القعدة ، أجلت حديث الشعر والشعراء ، ولم أفتح فمي بكلمة عن موت الشعر .

الدكتورة سلمى لن تنتحر إذا كتبت الشعر أو ترجمته ، الدكتورة سلمى يقتلها فقط : غياب الشعر من عالمنا .

لم أخبرها بما فعلته في صباحي ، وفي نيتي إطلاعها علي ما دار بيني وبين كمال بك الأغبر صاحب العمارة لأتخلص من مخاوفي ، وكنت قد قابلته مرة أخرى من قبيل الشماتة وجس النبض هذا الصباح .

من معرفتي السابقة بهذا العجوز ، كنت أراه يستمع ولا يتكلم . وإذا توعد نفذ . رجل وجهه كشر لا يعرف المزاح . تقاطيعه ممصوصة منذ شبابه . رجل صاحب جاه في الدوائر الحكومية وينطق في حذر .

لكنه هذه المرة تحدث وخيب ظني . مقتل ابنه فك عقدة لسانه . تكلم ولم يتوقف . أفصح . ولم يكن حزينا لفقدان ابنه ، بل خائفا من أيامـــه القادمة . في بداية حديثنا، قال : عائلة محترمة يقتل لها ثلاثة أبناء في أقل من عشر سنوات . هذه لعنة ؟

هززت رأسي ، ولم أقل : نعم أو لا .

لعنة ؟ ماذا يقصد العجوز ؟ هو الشر الذي قبع في عروق هذه العائلة . القصد ، اكتفيت بهزة رأسي وصمت .

قـــال الـــرجل : ابنـــي كان نابغة زمانه ، ولا يري إلا نفسه . وعندما خذلته معادلة رياضة ، كانت الخاتمة ، قتل نفسه ليقتل دنياه والمعادلة .

قلت : رحمه الله .

قال : رجل قتلته معادلة رياضية . رجل قتلته الأرقام المجردة ، أرقـــام . أرقـــام . قتل نفسه . الرياضيات العليا مثل النساء ، تعطي نفســـها كلـــية أو تتمـــنع ، وإذا تمنعت كان الجحيم . مات ابني في معركة مع معادلة رياضية لعوب . . وبعدها حدثني عن أبنائه القتلى واحدا واحدا ووالدتهم وأبناء عمومتهم وأخوالهم .

في نهاية حديثه عن العائلة، تعمد الرجل الود معي ، طلب مني زيارته مرة ثانية قبل سفري ، وطوال حديثه معي لم يشر من قريب أو بعيد إلي شقتي التي تم اغتصابها . وصلتني رسالته، ومجمل قوله

أن شـقتي المغتصـبة فـيها مقتلـي كما كان مقتل ابنه في معادلة رياضية. وقلت له بطريقة خفية أنا الآخر : لن أتنازل عن شقتي .

تحادثـنا رغم كل شيء . شربنا قهوة وشايا وعصائر . ودخنت أنـا شيشة . وروى لنا الجرسون نكتة عن حادث الحادي عشر من سـبتمبر وضـحكنا . وهذه النكتة كنت قد سمعتها في جنيف لكنني ضحكت عليها في القاهرة .

وفي نوبة كرم ، أعطى الرجل متسولا عدة جنيهات وكنت أظنه لـن يفعـل . وكدنـا نذهب سويا إلي الغداء في مطعم قريب لكنني تراجعـت فـي آخر لحظة . لهذا ليس من العدل القول بأن جلستنا سـيطر علـيها الجفاء أو العداوة . وخلاصة القول أننا تعاملنا كما تعـامل الـروس والأمريكان في سنوات الحرب الباردة . ترسانات نووية جاهزة وباب مفاوضات مفتوح .

اسـترحت لهـذا الرأي الأخير ، هي الحرب بيننا أو الصلح ، ورأيت أن أخبر الدكتورة سلمى بأنني قابلت صاحب العمارة صباح الـيوم ، وتعاملنا وفقا لقوانين الحرب الباردة ، ثم أشرح لها نظرية الردع النووي وتوازن الرعب .

قضـايا تابعـتها عن كثب وكتبت عنها من جنيف ، ولكن من يقـرأ؟ بالتأكيد نظرية توازن الرعب لا تهم الدكتورة سلمى ، قلت فجأة دون مبرر : كمال بك صاحب العمارة مآله السقوط مثل الاتحاد

الســوفيتي الســابق . ضحكت سلمى من قولي . طلبت منها سماع موسيقي سبيليوس بدلا من موسيقي تحضير الأرواح التي تزعجني . هل ينقصنا حضور روح المهندس العلامة بعد انتحاره ؟

تخلصت من حكاية تحضير الأرواح ، ولم أفتح فمي بكلمة عن نظــرية تــوازن الرعــب . وأوقفت سلمى شريط موسيقي تحضير الأرواح بعد تردد . ربما تفضل سلمى مناقشة نظرية توازن الرعب أكثر من سماع موسيقي سبيليوس .

اســتمعت إلي موسيقي سيبليوس وقلت لها إنني أحلم بالرجوع إلي شقتي المغتصبة ، وكنت أكذب عليها ، لهذا صارحتها بالحقيقة .

والحقيقة هي أنني لا أود الرجوع إلي تلك الشقة ، ولا يساورني شــوق أو رغــبة فــي الحصول علي أثاثاتها المغتصبة التي كلفتني الكثير ، وأفكرُ في الإقامة في مدينة الإسكندرية لتكتمل غربتي إذا لم يتيســر لــي الحصــول علــي شقة قريبة من النيل في المعادي أو العجوزة.

أطمع في شقة أري وأسمع من شرفاتها ونوافذها موج النهر . .

ولهــذا السبب وحده انتقل إلي العيش في مدينة الإسكندرية في قادم أيامي . أنزل إلي مياه البحر في نهاري ، أسير علي الكورنيش في ساعات الضجر . أمضي يومي علي مقربة من البحر ، في الليل أدور علــي مقاهــي المدينة . اختلس في نهاري ساعات عملي من

البحر ، أتحايل عليه ، اقبع في شقتي في الفجر ساعتين أو ثلاثا أكتب وأقرأ ، وبعدها ألبي نداء البحر ، اصطحبه معي ، وأضعه في خيالاتي ، لأحلم به في ليلي .

الإسكندرية جميلة ، ومشكلتي هي أنني لا أعرف أحدا هناك ، فقد تربيت ونشأت في أحياء القاهرة حتى سن الأربعين . أنا رجل قاهري حتى النخاع ، وفي جنيف ، اخترت من الأحياء ما يذكرني بالقاهرة ، كي أسير علي شاطئ بحيرة جنيف وأقول لنفسي : هذا هو شاطئ النيل .

لماذا السفر إذن إلي الإسكندرية ؟

هل أصنع غربتي بنفسي مرة أخري ؟ ومتي ؟ في نهاية العمر. هذا هو السؤال الصعب . لو أحبتني سلمى أو تزوجتني بقيت إلي جوارها في القاهرة ولا أسافر إلي الإسكندرية أو جنيف . إنها خيالاتي التي لا أساس لها . فأنا لن أترك جنيف وكذلك لن أترك القاهرة . خيالاتي تدفعني لرؤية البحر وعشق الأهرامات وأجراس الكنائس والقباب والمآذن والشوارع الضيقة . هذه أشيائي الحميمة التي حرمت منها في سويسرا . البحر : هذا الخضم العظيم الهادر . عشقي الذي حرمت منه بسبب قلة حيلتي .

في القاهرة حرمت من البحر ، وفي سويسرا حرمت من النيل . سلمي مدينتي السحرية .

في ثـراء صدرها أري البحر . أغوص . أسمع دقات قلبها . أقـذف بنفسـي بين الموج . في شفتيها ألمس هدير الموج . تأملت ألـوان ملابسـها ، بلـوزة شفافة لونها أخضر ، وعليها شال أحمر يغطـي جـيدها . بـنطلون واسع أبيض يضيق بالقرب من قدميها المرمريين ، وتربطه بشريط ملون ، صدرها متسع وقبابه عالية ، صدر فيه ثراء وخصب .

وجههـا مستدير ناصع البياض ، وبسمته واسعة تزينها شفتان ممتلئـتان ، لونتهما بلون قرمزي يتناسب مع لون البلوزة الأخضر . ذراعاهـا قويتان . بضتان . يدان ممتلئتان تنمان عن الكرم . أليست هذه مدينتي ؟ نعم .

اقتربـت منـي واقتربت منها . قبلتها . تعلقت بشفتيها . وقفت علـي قمـة الهـرم. تسلقت . صعدت . نزلت . سرت . سرحت . تململـت . سحبت يدي بعيدا عنها في رفق ، وطلبت مني أن أحدثها عـن الطـيران فوق جبال الألب بأجنحة حرير . قالت : إنها تعشق الطيران الشراعي .

صعدت بي سلمى إلي جبال الألب وحطتني أرضا .

بعدهـا أمسـكت بـيدي . إذا نزلت نحو ساقها رفعتها ، وإذا صعدت إلي فخذها نزلت بها حتى الركبة . تشغلها أقوالي ولا تهزها لمسات يدي. قبلتها . نحت شفتيها وأسلمتني وجنتها . رويت لها شيئا

وأخفيت أشياء .

حديث الطيران يفزعني . أنا رجل لا يحب المطارات ولا الطائرات . رجل عاكسته أيامه ، وأصبحت الطائرة وليست السيارة وسيلته في التنقل لثلاثين عاما . أليست هذه لعنة ؟ هذه هي اللعنة الحقيقية التي وردت في الأساطير القديمة ، وليس مقتل أبناء صاحب العمارة .

سألتني سلمي عن العباءة المغربية ولماذا اشتريتها ؟

ضايقني سؤالها كما ضايقني حديثها عن الطيران . وعرفت أنها تدربت علي الطيران الشراعي في صباها ، ثم توقفت لأسباب خارجية تتعلق بسفر والديها إلي دولة خليجية . هل أصارحها بخبايا نفسي ؟ هل أقول لها إنني لن يطيب لي مقام في القاهرة أو في سويسرا ، قبل أن أحرق تلك الملابس التي ارتديتها يوم الثاني عشر من إبريل ؟ لا بد من التجمل في القول . نعم . لأتعلم من وكيل الوزارة السابق ، ذلك الرجل الداهية . أحادثها في لغة مقتضبة ، وأرسل لها رسائلي في كلمات غامضة ، سألتها عما فعلت أمس . قالت : أعباء اليوم العادية صباحا ، وبعد الظهر خاطبت صديقنا الفنان تليفونيا . أخبرها أنه اشتري مجموعة ألوان مستوردة جيدة ، وبدأ في شد " البالتة " عند نجار عجوز يتعامل معه منذ كان طالبا في كلية الفنون . وأخبرته إنها جاهزة يوميا بعد الظهر وفي المساء

لمــدة أربعـــة أيــام فـــي الأسبوع . قال : جميل . ولما سألها عن الملابس، اقترحت تصويرها بالعباءة المغربية . وإنها سوف تشتري واحـــدة جديدة من عند الترزي المغربي في الحسين . قال : والعباءة الموجودة ، قالت ، هذه ليست لي .

روت لـــي الدكتورة سلمى هذا كله ، ولم يطرف لها جفن بينما يـدي علــي ركبــتها . أحسست بأنها تطردني من مدينتي بأقوالها السخيفة . سحبت يدي بعيدا عن ركبتها ووضعتها هي الأخرى علي حافـــة المقعد . جلست كأنني مقيد إلي المقعد . سألتني ، تضايقت ؟ قلت : نعم .

أخــذت يــدي مرة أخري وقبلتها قبلة خفيفة ، ثم وضعتها علي صدرها فوق الثدي، وطلبت مني أن لا أقرصها ، لأنني جرحتها في المرة الماضية .

زعمــت ســلمى إنها تحبني ، وصدقتها . ثم تركتني وقامت ، وهي تطلب مني الانتظار . غابت بعيدا ، وعادت وقد وضعت روبا جمــيلا علـــي جسدها ، وفي يدها كومة ملابس ، قالت : هذه لك . افعـــل بها ما تشاء . أحرقها في الموضع الذي تحبه ، وسوف أقف وأشعل النيران فيها من أجلك . تأكدت من حبها لي ، وعندما جلست انحسر الروب عن فخذها ، وتركت الروب علي حاله ، لم تمد يدها وتسوي طرفه ، ولما لم أحرك يدي نحوها ، أخذتها ووضعتها علي

فخذها من فوق ، وتبينت أنها قد تخلصت من البنطلون .

سألتني ، هل أحبها ؟ قلت : نعم ، وكنت لست متأكدا .

لـم تعلق سلمى علي قولي واكتفت بالابتسام . رأيت الشك في عينـيها . لو أثقلت عليها بالكلام لن تصدقني ، داعبت يدي المستكنة علـي فخذهـا : حركـتها ، قرصتها ، وأمسكت بأصابعي الخمسة وعصـرتهما بأصـابعها ، وكنت أحس طراوة يدها ، وسألتني كما سألتها في أول يوم لنا ، إذا كنت أعزف علي آلة موسيقية ما ، قلت: كنت عازف كمان .

سـألتني ، لمـاذا توقفـت عن العزف ؟ وددت الكذب ، لكنني صمت . أخذتها في حضني ، وقبل أن أقبلها ، قامت وأطفأت أنوار الصـالون ، وفـي طريق عودتها ، انحسر الروب الواسع ، وتبينت أنهـا عارية ، ولمحت ذلك كله في الظلمة . ولما قالت سلمي أنها قد ترجمـت القصيدة ، وأضافت إليها عدة أبيات أخري من عندياتها ، تأكدت أن أميرتي سوف تخذلني وتنتحر .

رق حديثـنا وشـفت لهجـته ، وحادثتها كما حادثني كمال بك صاحب العمارة هذا الصباح ، تخلصت من الصمت ونطقت ، رويت لها حكايات .

٧

- البقاء في الألوان -

ضـــربات فرشاة الفنان لونت روح الدكتورة سلمى وعقلها قبل اللوحة ، صبغت حديثها بوهج ، وجعلت كلماتها تكتسب ظلالا حادة، وأصـــبحت أقوالهـــا أكثر نفاذا ، وكأن بها طاقة روحية من لهب ، وبـــدلا مـــن قـــياس الوقت بنصف النهار ، أصبحت تقيسه بالدقائق وتحاسبني .

لا يضايقني حديث سلمي عن الرسام ومرسمه وأمزجته وعاداته أثناء العمل ، الذي يقلقني فقط ، ويزعجني تبدل مفهومها عن الزمن وقولهـــا : البقاء في اللوحة ، وإنها حسنا فعلت بجلوسها أمام الفنان ليرسمها .

شـــابة لـــم تـــتفوق بعد في مجالها ، وتعمل علي حل معادلتها الخاصـــة ، طرحت اسمها في الأوساط الأكاديمية ، وأمامها مشوار

طويـل حـتى يلمع اسمها ، وجدت نفسها في لوحة لم تكتمل بعد ، اختلطت دعائم يومها .

تصـف سلمي صديقي الفنان بقولها : فارس من فرسان القرن السـابع عشـر . رجل مسكون بقيم زمان مضى . رجل كلاسيكي الـنزعة وتقدمـي التفكير . رجل يجمع بين قواعد الفن الروماني ، وثوريـة مـاركس في معادلة مستحيلة التحقيق ، لكنه يسعى . أقول لها: هو كذلك بالفعل .

بمـرور الأيـام بدأت سلمى تقضقض وتزعم أنها من أهل ذلك الـزمان ، القـرن السـابع عشر ؟ وهذا ما حببها في الجلوس أمام صديقنا الرسام بالساعات ليرسمها ، وبعدها تضحك .

سـلمي امـرأة تعرف كيف تضحك ، وهذه نعمة . وخشيت أن تفقـد هـذه المـزية مـع اكتمال اللوحة . تكشف عن أسنان بيضاء ناصـعة. وأسنانها ليست صغيرة مثل أسنان القوارض ، لكنها أسنان كبيرة تنتمي إلي الجنس البشري الراقي . ومباحث الأسنان في علوم الجنس البشري كثيرة ، ولم أقل لها إن أسنانها كبيرة وجميلة . أسنان بيـنها مساحات فضاء تزيد ابتسامتها حلاوة . أسنان تنم عن سماحة نفـس وعلو همة . امرأة بهذه المواصفات ، هل تحصر نفسها داخل لوحة وتعد نفسها للموت ؟ لا أظن .

تغـيرت سـلمى وكان ذلك واضحا ، بدأت تتكلم في السياسة ، وأسقطت هذه الفكرة من دماغي عن عمد مؤقتا ، وقلت لا تقدر علي تجاهل الظروف المؤسفة الحالية ، وأرجعت تبدل أحوالها إلي ترجمة القصيدة ، وإضافة أبيات لها من عندياتها .

أبـيات شـعر كابوسـية مزعجة ، وضعت بها خاتمة للقصيدة الكابوسية . تقول فيها :

سوف ألحق بك يا سيدتي وأنا أقف منتصبة تحت الموج ،

في عمق البحر ،

ما دام سيادة النائب العام لا يحب العري ،

وشيئا آخر من هذا القبيل .

أبـيات شـعر سـريالية ، قلـت : فـاض الكيل . حروب . مجاعـات.عولمة . اتصالات . هندسة وراثية . قنابل ذرية . أسلحة كيميائـية . تسـاقط الفلسـطينيين كالذبـاب . قنوات فضائية تنعق كالغـربان . أكاذيـب . طق نافوخ المرأة العاقلة . فضلت الوقوف منتصـبة تحت الموج في عمق البحر ، ومن منا لا يعرف السريالية في حياته ؟

تعلقـت بشفتيها أول أمس طرت . سمعت بكاء طفل رجعت . وجدتها في حضني . وكانت خائفة . حكاية شنق ابن صاحب العمارة قلبـت عالمها وعالمي رأسا علي عقب . نعم أحداث الحادي عشر

مـن سـبتمبر عـرت السياسات الأمريكية المتوحشة . وجاءت هذه القصيدة لتفجر غضبها .

كنا قد اتفقنا علي حفل خاص لحرق ملابسها الخارجية والداخلية التـي ارتدتها يوم الثاني عشر من إبريل ، في ذكري يوم طلاقها ، وسـألتها في تلك الليلة التي نعست فيها إلي جواري في الصالون : هل نحرقها في منطقة الأهرامات خلف هرم الجيزة الأكبر ؟ فكرت سلمى مليا ورفضت فكرتي ، قالت : هذه الفعلة تغضب إيزيس .

وهل أقدر أنا العبد الفقير لله علي فعلة تغضب إيزيس ؟

تراجعـت ، قلـت : لـن نغضـب إيزيس . هي امرأة متعلمة وفاهمـة. امـرأة تعرف دقائق القرن الثامن عشر ، عصر التنوير العظيم . ولها دراسات هامة معظمها يرفضه رفاقها بسبب جرأته . امرأة لها هذه المكانة العلمية لا تتحدث عن هوى .

امرأة تنوي الوقوف منتصبة في عمق البحر تحت الموج يجب طاعـتها وتنفـيذ مشيئتها ، كما أنها أولا وأخيرا صاحبة حق ، فهذه ملابسـها : الجاكيـت الفسـتقي اللـون . البلوزة الشفافة . الشال . البـنطلون الشيك . مشد الصدر. السروال . كل هذه القطع الخارجية والداخلـية تخصـها ، لهـذا من العدل أن يترك لها تقرير موضع الحريق وتوقيته .

كـــل منا يتخلص من ملابسه القديمة بالطريقة التي تروقه ، هو حـــر ، الفقـــراء يؤجلون ذلك لحين شراء ملابس جديدة ، والأثرياء يبدلون ملابسهم من أجل الترويح ، وهذا حق من حقوق الإنسان وإن كان لم يرد في العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية .

الطعـــام المناســـب حـــق من حقوق الإنسان إلي جانب المسكن والملبس والتعليم والصحة وكذلك التخلص من الملابس القديمة ، وإلا لمـــا حصل فرد علي ملابس جديدة ، وتوقفت آليات السوق وخربت الأسواق .

ربما تدفع كبريات شركات النسيج في العالم في منظمة التجارة العالمـــية في السنوات القادمة للنص في العهد الدولي للحقوق المدنية والسياســـية الذي تنتهكه كل حكومات العالم ، علي حق الإنسان في التخلص من ملابسه القديمة لتشجيع التجارة .

الدكـــتورة سلمى صاحبة حق أصيل ، ولهذا طلبت منها تحديد موضع الحريق وتوقيته ، تنازلت لها عن ذلك وأنا صاحب الفكرة ، لأن هذه الملابس تخصها وليست لي .

رفضـــت فقط حرق هذه الملابس في الحمام أو في الشرفة ، أو فوق السطوح . يجب حرق هذه الملابس في منطقة أثرية تليق بها ، هذا حفل . لنصنع أسطورة القرن الحادي والعشرين علي طريقتنا .

البعض يتزوج تحت الماء . البعض يعقد قرانه معلقا في بالون في الهواء . ونحن سوف نحرق ملابس جديدة لغرض في نفوسنا .

حرق ملابس مستخدمة أو جديدة ليس عيبا أخلاقيا ، ولا يتعارض مع حقوق الإنسان . ربما فقط أمر فيه بلاهة . نعم . وما العيب في ذلك ؟ البلهاء لهم النعيم . جمعتني الصدفة بالدكتورة سلمي مرجان وجدتها أكثر بلاهة مني . صدقتني . صدقتها. البلهاء لهم نصف العالم . أما الأذكياء فلا يعرفون سوى ذواتهم .. ولنا في شنق المهندس نابغة زمانه حكمة . كما أن شراء العباءة بدلا من الملابس المستخدمة قد أثبت حسن نيتي ، وجعل الصفقة ليست خاسرة بالنسبة للدكتورة سلمى . وهي تفهمني بعيدا عن حسابات الربح والخسارة .

صورتها غائمة في اللوحة وسط مساحات قاتمة من الألوان ، لا ملامح لها ، واللوحات غير المكتملة كائنات مشوهة . نقاط وخطوط تحدد عرض الكتفين ومساحات الوجه . وأبرز ما كان ظاهرا في اللوحة منذ البداية : العين اليسرى ، وسنة أمامية . نظرة ثاقبة في العين وسنة بيضاء تلمع وسط مساحات قاتمة .

بدأ صاحبنا رسم الدكتورة سلمي مرجان برسم نظرة العين وهذه السنة الأمامية . وفي كل مرة يقول : انتظر حتى تكتمل اللوحة . وكنت أعرف طريقته في الرسم . وبدت لي سلمي في الصورة كالجنين ساعة الولادة ، نصفه في الخارج ونصفه الآخر

داخل الرحم . قلت : سلمي في رحم الفنان . وليس بمقدوري معرفة ملامح الجنين حتى يخرج إلي الدنيا .

وأنـــا دومـــا يدهشـــني تعامل الفنانين مع الشخوص ، وأنتظر المفاجآت منهم في الأيام الأخيرة .

فجأة تكتمل اللوحة وتضئ أركانها وتظهر الشخوص كما يراها الرســـام . المساحات القاتمة والسوداء تصبح مضيئة . وتوقفت عند العين اليسرى وتلك السنة المضيئة. ماذا يري صديقي في هذه العين؟ ولماذا بدأ الرسم بهذه السنة ؟

كـــل دراســـات الجـــنس البشري تستند إلي الأسنان . الإنسان منتصــــب القامـــة رسمت صورته في البداية من العثور علي بضعة أســـنان في أحد الكهوف . مجموعة أسنان وقطعة عظم صغيرة من القـــدم . الأســـنان وأصـــابع القدم هما أصل الحكاية . وضحكت . يغـــوص صـــاحبنا في البعيد الخفي ليكشف عن الظاهر من سنة في وجه الدكتورة سلمي .

كنـــت أتصـــور أنـــه ســـوف يبدأ برسم شفتيها : تلك الشفتان الـــبارزتان الجميلـــتان . أو ينزل إلي صدرها ويتوقف عند بروزه ، ذلك البروز الساحر الذي هو رمز الأنوثة ، لكنه بدأ بسنة وحيدة في الجهة اليسرى . لله في خلقه شئون .

حقيقة لقد تنبهت إلي جمال هذه السنة ، عندما تحدثت إلي الدكتورة سلمي لأول مرة في مكتب صديقي المحامي ، وأنا لست رساما ، لكن أن يبدأ بها الفنان لوحته ، فهذا يؤكد مكانة هذه السنة .

تركت صديقي الفنان يستكمل حفائره مثل كبار المكتشفين ، وتوقفت عن زيارته أثناء الرسم ، وعندما كنت أزوره بمفردي ، كنت أبتعد عن اللوحة الناقصة ، ونتحدث في أمورنا . ويقول لي عن سلمي : سيدة عظيمة . تفهم في الفن وتفهم في السياسة .

الدكتورة سلمي مرجان تفهم في الأدب ؟ نعم . تفهم في مسائل التنوير ؟ نعم . وإذا قرر صديقي أنها تفهم في الفن ، لا بد أنها تفهم في الفن ، أما السياسة فلا أظن ، ورأيي أنها تفهم في أمور كثيرة ، ليس من بينها التصوير أو السياسة .

لهذا عندما أسرت لي الدكتورة سلمى ، إنها قد تخلت نهائيا عن فكرة اقتناء اللوحة بعد اكتمالها . تأكدت أنها لا تفهم في التصوير ولا تفهم في الفن ولا تفهم في السياسة . كيف تفهم في التصوير وترفض اقتناء مثل هذه اللوحة ؟ وعندما تقول الدكتورة سلمى نهائيا، فهي تعني ذلك . وسألتها عما إذا كانت سوف تتابع الجلوس أمام الفنان حتى تكتمل اللوحة ، قالت : طبعا . هذه مسئولية .

استرحت لقولها فاعتذارها عن عدم الجلوس أمام صديقي الفنان، بعد هذا الجهد الكبير ، فيه إهانة لي وله .

قدم سلمى المرتكزة علي الأرض ، والأخرى المعلقة في الهواء وهي تضع ساقا فوق ساق ، لا تقلان حلاوة عن السنة الأمامية التي تزيــن الوجه ، وكنت أنتظر ظهور إحداهما علي الأقل في اللوحة ، وأري خطا مضيئا وسط اللوحة من أسفل ، لكن أسفل اللوحة كان لا يزال معتما ، ولا أثر يدل علي بزوغ القدم .

سلمي لها في خيالي صورة أخرى ، بعيدة عما يصنعه صاحبنا، وإذا لم يلتفت إلي جمال هذه القدم المعلقة في الهواء ، عاتبته بشدة ، فــالقدم ركيزة الإنسان علي الأرض ، وأفضت في الحديث عن أقدام الــناس ، من حيث كبر حجم القدم وانبساطه وأصابع القدم وترتيبها مــن حيث الطول والقصر ، ورسومات الأقدام بالألوان علي جدران الكهــوف فـــي عصور ما قبل التاريخ ، وتحاشيت القول بقدم السعد وقدم النحس عن قصد .

يســـمعني الرســـام ويطـــيل النظر ، ويرمي بخط أو يلون بقعة صــغيرة ، ثــم ينــتقل إلــي موضع آخر في اللوحة ، وكأنه يرمي بقطـــرات عطـــر علـــي حسناء . يسألني شيئا وهو يرمي باللون ، ويصمت عندما يطيل النظر . وكنت أراه مشغولا بأعلى اللوحة حتى منتصـــفها بعـــيدا عـــن منطقة القدم المعلقة والأخرى المرتكزة علي الأرض ، وكأنه يتجاهل أقوالي عن عمد . انتظر منه أن يرمى بخط أو نقطة إشارة إلي قدميها ، لكنه يخذلني .

تركــته يــزاول عمله ، ومن جانبي لم أتوقف عن الحديث عن جمــال وأهمــية الأقدام، لعله .. ولما انتهيت من الأقدام انتقلت إلي الحديث عن الأحذية ، وهذه حكاياتها طويلة هي الأخرى .

تابع الرسام عمله وشغل بألوانه وخطوطه عن حديثي عن أفخر الأحذية وماركاتها وأسعارها وأحوال السوق العالمية .

لــم يــتوقف عن الرسم ، ليفكر فيما أقوله ويهتم بقدميها وذلك الحــذاء الأنــيق المفــتوح الذي تضعه ، وكانت الدكتورة تنظر إلي وتبتســم طــوال الوقــت ، وكأنها تقول لي لا فائدة من الحديث عن الأحذية ، لا تتعب نفسك ، وسوف يرسمها الفنان دون أقدام ، وكأنها امرأة مشلولة ، وتغاضيت عن غمزها المضمر وتابعت حديثي الذي كان سخيفا في مجمله .

ولتســكتني سلمى ، رفعت ساقها ، وهزت قدمها في وجهي من قبيل النكاية . وغاظتني هزة قدمها أكثر مما لو كانت أخرجت لسانها لي أو قالت : طظ .

سلمى امرأة متعلمة ومهذبة لا تقول لواحد من معارفها : طظ .

وبــدلا مــن إخراج لسانها أو قولها بالفم الملآن : طظ . هزت قدمها في وجهي . فقالت : طظ . ما الفرق ؟ هذه طظ باللسان وتلك طظ بالقدم .

مـن طبائع الجنود الأمريكان القبيحة الجلوس ووضع القدم في مواجهـة المـتحدث ، وقـد شاهدتهم في برلين قبل الوحدة الألمانية بعينـي رأسي يفعلون ذلك ، يجلسون ويضعون أقدامهم في وجه من يجلس أمامهم ، فهذه الحركة ليست مستهجنة لديهم ، وهم في رأيي ، لهذا السبب ، ناس قليلة الأدب .

أنا لا أعرف إذا كان الجنود الأمريكان فعلوا ذلك في أفغانستان أم لا ، بسـبب قلـة الكراسـي في أفغانستان ، فالقادة الأفغان هناك يجلسون علي الأرض ، لكنني متأكد أنهم يزاولون هذه الفعلة القبيحة فـي دول الخلـيج الغنية والمغلوبة علي أمرها ، منذ حرب الخليج الثانـية ، وأنني مـتأكد أنهم إذا دخلوا إلي العراق سوف يضعون أحذيتهم فوق رؤوس العراقيين وليس في وجوههم فقط .

الدكتورة سلمى لا تعرف ما أعرفه عن الجنود الأمريكان ، ولا يهمهـا إذا توقف الفنان عند جمال قدميها أو لم يتوقف ، وهل تلحظ امـرأة جمـال قدمـيها ؟ تلحـظ ذلك فقط إذا كانت تعرج أو ساقها معوجـة، أو رجلها مصابة بشلل أطفال والعياذ بالله ، أما إذا كانت مشـيتها عاديـة ، وساقاها مفرودتين ، تهتم برائحة قدميها ونظافة أصـابعها فقـط ، وهـذا جميل ، فرائحة القدمين العفنة إذا تشبعت بـرائحة أحذية رخيصة تصبح مقززة في حر القاهرة في الصيف ، وسـلمى لا تحرص علي ظهور قدميها في هذه اللوحة الزيتية حتى

هــذه اللحظـــة ، علـــي الـــرغم من رائحتهما العطرة ، وقد شممت رائحتهما عندما تركتني أقبلهما وأدعكهما بطرف لساني .

ســلمى ربما تهتم بساقيها الجميلتين ، ولهذا تضع قدما علي قدم وهي جالسة أمام اللوحة ، وقد تخلصت من البنطلون ووضعت جيبا قصيرة تكشف عن ساقيها المرمريين حتى منتصف الفخذين ، تحت العباءة .

تأخـــر بـــزوغ قدم سلمى في اللوحة ، وهذا لا يضايقها ، هي فخـــورة بساقيها وفخذيها ومعجبة بقدميها ، والمسألة تتلخص في أنها علي دراية بأصول الفن ، ولا تتدخل في عمل الفنان ولا تطلب منه تصوير قدمها ، وتعرف متي تصمت ومتي تتكلم .

بســبب هــذه الخـــبرة الجمالية زجرتني سلمى في الحمام لما تجاوزت الأصول ، فالتعامل مع الموديلات ليس سبهللة ، ولا يجوز التهجم عليهن في الحمام أو أثناء الرسم . قلت : طبعا .

الرســـام مايســـترو اللوحة ، يبدأ " بشخبطة " وينتهي بلوحة . يضـــع ما يروقه من ألوان ومن خطوط ومن بقع ، والحكم ليس قبل نهايـــة اللوحة ، كلا ، الكتاب يعرف من عنوانه ، وهذه لوحة جميلة سوف تدخل تاريخ الفن ويؤرخ بها .

يضـــع الرسام شخبطات ، لا يحاسبه أحد. يدهن وجهها باللون الأســـود ، جائـــز . عبأ بطنها بقطار أو طائرة أو سيارة ، قيل سعة خيال .

أنـــا شخصـــيا إذا رسمت امرأة سوف أضع حمارا صغيرا في رحمهـــا . وهذا ما فعله كبار الرسامين . هذه تصوراتي عن البقع السوداء وأنا لست رساما ، وسوف ألفت نظر سلمى إلي هذه المسألة فـــيما بعـــد . أقول لها صاحبنا لا يري قدميها ويصورها كسيحة في اللوحـــة . وهذا لا يصح . وأطلب منها أن تسأله عن نوعية الحذاء الـــذي يـــروقه حتى يبرزه في اللوحة ، فلون الحذاء يجب أن يكون متناســـقا مـــع ألـــوان ملابسها ، وهذه مسألة بديهية في الفن ، ولن يضايقه سؤالها .

هذه كلها مزاعم حول اللوحة .

والاهتمام الزائد بقدم امرأة غير مستحب ، وأعرف ذلك ، ومن جانـــب آخـــر يهمنـــي ظهـــور قدميها في اللوحة أو علي الأقل قدم واحدة..

فـــي مـــنطقة الحسين المزدحمة . رأيت أصواتا بشرية دهستها موتورات عربيات وميكروفونات . أطلت النظر وسمعت . إذا ذهبت مـــرة ثانية إلي هذه المنطقة بالنهار لن آخذ معي كاميرا عادية ، بل كاميرا حديثة تسجل الأصوات المطحونة .

هنا في حضرة الرسام أسمع أصواتا مخلوطة بالألوان وتهرسها ضـجة الـترام والسيارات وصراخ الباعة وزحام الناس فتقتل الفتنة فـيها . لا يـتكلم صديقنا وهو يرسم وأسمع صوته مناجيا شيئا ما . مـرات أسـمع صوته عاليا ومرات أسمعه حفيفا ناعما وهو يرمى بألوانه علي اللوحة أو يمد نظره إلي سلمى . الفرشاة تتكلم .

ذات مـرة زارني صاحبنا في أواخر عهد الرئيس السادات قبل سـفري ، فـي مكتبي في شارع الجلاء ، في الطابق التاسع ، ومن مكتبـي كـل صـباح كنت أري شارع الجلاء منقسما إلي نصفين : نصف مظلم ، وآخر مضيء .

أتـأمل البيوت التي أظلمت واجهاتها تماما ، وأنتقل إلي الناحية الأخرى المضيئة ، متمنيا تصوير هذا المنظر الفريد . طلبت منه أن يتأمل الطريق ، ولفتت نظره إلي هذه الإضاءة الغريبة ، ألقي نظرة سريعة وجلس .

لم يرقه المنظر الذي يشدني كل صباح . سألته عما رأى . قال شيئا مختصرا . عرضت عليه رسم الشارع من هذه الزاوية الفريدة. ابتسم . طلبت منه أن يعلمني . قال : هذه ليست إضاءة فنية . قال : هذه إضاءة عفوية .- نور وظلمة . لا ظلال . ربما في ساعة أخرى مـن النهار تكتسب هذه الإضاءة جمالا . ثم التفت إلي قائلا : العتمة صناعة الشمس ، المهم الظلال .

رفض صديقي رسم الشارع الذي سحرتني إضاءته ، فهل يقبل رسم قدمي سلمى إذا لفتت نظره ؟ لا أظن .

كنــت فــي ذلك النهار متعبا ، جلسنا ، في مكتبي لوحة مقلدة لبيكاسو تعود إلي المرحلة التجريدية من صنع واحد من رواد الأندية الثقافــية . ألقي صاحبنا نظرة علي اللوحة ، ثم غير مقعده في ضيق مــتأففا وأعطاهــا ظهــره . قال رأيه . كل من يأتي إلي مكتبي من المثقفيــن أو شــباب الفنانيــن يتوقف عند اللوحة ، فأخبره بأصلها وفصــلها، وسبب تعليقها في مكتبي . أما صاحبنا فأعتبرها من سقط المــتاع وقذى في العين ، وقال : القبح ملأ البلد يا جدعان . لهذا أنا أحــرص الناس علي الصمت وهو يرسم . لعل وعسى .. ولكن هل صحيح أن العتمة صناعة الشمس ؟ كيف ؟ وإذا كانت العتمة صناعة الشمس ، من أين يأتي النور ؟

أقــاويل تدخــل فــي باب السفسطة ، وهناك تفرقة بين إضاءة خارجية وأخري داخلية في اللوحة ، ولن أخبر الدكتورة سلمى بهذه الأمور ...

بعد فترة صمت طالت توقف فيها عن العمل ، وكنا نستمع فيها إلي دحرجة رمان البلي وارتطامه بالجدران في غرفة المكتب ، قال الرسام : النسق العام هو الجوهر ، وروح الجوهر رؤية الجزئيات . والقدرة علي الإتقان هي الفن . معادلة صعبة . كما أن .. وتوقف .

مـــن يبحث عن الجوهر هذه الأيام ، ومن يشغل نفسه بالنسق ؟ مســـائل ضـــاعت من النفس ، ونسيتها الروح ، ولم يتبق لنا سوى الجري وراء التفاصيل التي تدهسنا .

لا أعرف عما يحدثنا ؟ عن حياتنا أم عن اللوحة أم عن الفئران التي تلعب برمان البلي ، في الغرف المغلقة ، ابتسمت ، غاب النسق العام لكلامه عني .

نســتمع إلـــي ما يدور وما يقع في الشارع وفي الشقة . سلمى ليست خائفة من ضجة الفئران أو اهتزازات الترام المجلجلة ، أكمل صـــاحبنا كلامه : البداية رؤية التفاصيل من داخلها ، وبعدها .. ثم توقف ، بعدها أشار إلي اللوحة ، قال : هذه السنة مثلا ؟ ثم توقف عـــن الكلام وانشغل باللوحة ، والدكتورة سلمى طوال الوقت تكتفي بالجلوس ولا تشاركنا الحديث .

قـــال صـــاحبنا : ذات مرة قدمت فنانة فرنسية إلي المرسم في غيابي ، رأت لوحة لم تكتمل ، علقت في منتصفها فردة حذاء قديمة. غضـــبت . ثـــرت . كـــيف تجرؤ ؟ حادثتها . دعتني إلي عشاء في مطعم فاخر . كنت أظنها سوف تعتذر ، لكنها شاركتني العشاء ، ولم تحدثني عن لوحتي وعما فعلته بها ، سألتها قبل مغادرتنا المطعم عن سبب فعلتها ، قالت ، شرحت الأمر ونحن نأكل .

عــدت إلي المرسم غاضبا ، جلست أمام اللوحة ، وفي الفجر ، بدأت التحضير للوحة في وسطها فردة حذاء . أستاذة كانت ، رحمها الله . قـــال : طلبت مني أن أتناول طعامي بيدي وكأننا في حديقة أو علـــي ظهـــر قارب . قلت : هذا لا يجوز ، قالت : ما لا يجوز في مطعم مكسيم ، يجوز في اللوحة . هذا كل ما نطقت به لتعلمني .

سألني فجأة عن اللوحات المقلدة التي أجمعها . قلت : لا بأس . هز رأسه في ضيق . قال : الملصقات واللوحات المقلدة لا قيمة لها. قلــت : هــذه نظرة رأسمالية . وتراجعت قبل أن أكمل جملتي عن قصـــد . فهـــم ســـبب توقفي عن الكلام . ضحك . اهتزت الفرشاة وتســـاقطت نقـــاط ألوان تعلق بطرف الفرشاة علي الفوطة ، وكانت سلمى بعيدة عن رذاذ الألوان . أكمل : قل يا صديقي نظرة رأسمالية حقـــيرة . قلـــت : هـــي كذلك . نظر إلي بطرف عينه ، وتبينت في نظرته سخرية .. وفهمت مقصده أنا الآخر . قلت في بالي : لا بأس من جر الشكل .

والحكايـــة أنني قرأت في مجلة لعلم الجمال مجموعة دراسات حول قيمة اللوحات المقلدة تقليدا حسنا . ولماذا أسعارها متواضعة ؟ بيـــنما قد تكون مقلدة بنسبة مائة في المائة . قال الرسام : إذا رأيت ســـيدة تشبه الدكتورة سلمى مائة في المائة من البوسنة أو القوقاز ؟ هل ..

ضحكنا لذكر البوسنة والقوقاز . وسألت الدكتورة سلمى ، لماذا البوسنة ؟ ألا توجد امرأة تشبهني في السويد أو روسيا أو بولندا أو أمريكا ؟ هل كلهن شقراوات ؟ معظم نساء دول الشمال شعرهن بني.

ضحكنا .

دافعت سلمى عن أنوثتها . معها حق ، ألا تجلس أمام رسام بالساعات كإمبراطورة ؟ بعد الضحك هز صاحبنا رأسه وانشغل بفرشاته وألوانه في صمت . وصمتت أنا الآخر ، اكتفي صاحبنا بالبوسنة والقوقاز وأغفل كرواتيا حتى لا يذكرني بساندرا الكرواتية في حضرة الدكتورة سلمى .

قمت . جلست . ابتعدت عن اللوحة .

جمعت الدكتورة سلمي كتبا حول الحملة الفرنسية في مصر ، ودرست مواقع تواجد القوات الفرنسية في القاهرة ، ورسمت خرائط لمعسكرات ، وحصرت أسماء بعض الناس ، وسألتني عن أزقة وحواري قديمة في منطقة باب اللوق ، وشغلت نفسها بما جاء في كتب الخطط وقدامى المؤرخين عن مقتل الجنرال كليبر .

أمس نصحتها مازحا بالاهتمام بأوراق حملة الإسكندر الأكبر علي مصر بدلا من الحملة الفرنسية . غضبت . وعندما تغضب سلمى تهتز شفتها العليا وتسقط قليلا وتغطي شفتها السفلي ، قالت :

حضرتك تسخر مني . تعرف وتصمت . أين حكايات ألف ليلة وليلة التي وعدتني بها ؟ تصمت يا شهريار في وقت الشدة .. لماذا ؟

فتحت الدكتورة سلمى النار . امرأة يومها أربعون ساعة . تعمل في الجامعة وفي جمعيات أهلية . تذهب إلي المكتبة . تقرأ . تبحث . التاريخ ليس بضاعتها تسأل . تجلس أمام الرسام . تدعوني إلي العشاء وتسألني عن أحوالي وهذه تأخذ منها ساعتين علي الأقل . تصلح سيارتها وتقف علي رأس ميكانيكية أوغاد . امرأة جبارة .

وعلي يديها رأيت مولد الخرافة بيننا . اثنان وامرأة جبارة وتجمعهم لوحة ناقصة وبينهم الوهم . منجزات القرن الحادي والعشرين حروب وإنترنت وعولمة وهندسة وراثية ، ونحن الثلاثة يشغلنا رمان البلي والفئران .

لا بأس . اللعب بالكلمات ليس عيبا ، وكل أسطورة لها وظيفة . أعرف عما تبحث الدكتورة سلمى وأصمت ، تود إمساك خط التماس بين الواقع وما وراء الواقع والجلوس فوقه ، بينما هو خط وهمي بين عالمين .

أخذتني سلمى إلي المقابر ليلا وليس بالنهار ، وليل القاهرة ثقيل معتم بسبب غياب نجومها وسواد سحبها لتلوث الهواء . أسمعتني علي حافة المقابر وروت .. قدمت صديقتها بائعة البالونات والفل ، قالت : فاطمة ضاربة ودع . وضحكت . ضربت فاطمة لنا الودع ،

وحدثتـــنا عـــن قصة حب تنتظرنا وخلفة سبعة من الصغار . بعدها شرحت لي ضاربة الودع أساليب النشل في القاهرة .

تلـــك الـــزيارة إلـــي المقابر مدخلي لسماع الموسيقي الغريبة ، الدكتورة سلمى تشدني معها إلي عالم ما وراء الواقع بصنعة لطافة ، أخذتنـــي معهـــا لأعاين وأتأمل وأسمع . طبعا حديث بائعة البالونات والفـــل عـــن الحب والخلفة من قبيل النشل . هذا مدخل إلي مملكة الموتـــى . قالت لي سلمى : فاطمة تعرف القراءة والكتابة وتتحدث بالإنجليزية .

صدقتها .

ربما تتحدث فاطمة بالفرنسية والروسية واليابانية أيضا ، نشالة في المحلات الراقية وعند مدخل البنوك وفي صالات الفنادق الكبرى لا بد لها من ارتداء ملابس سهرة والرطانة بلغات أجنبية .

رأيـــتها علـــي ناصـــية الكافيـــتريا منذ عدة أيام تقود مجموعة خواجات إلي مطعم ، تحادثهم مثل مرشدة سياحية وتعجبت .

طـــبعا اسمها ليس فاطمة ، فهذا اسم شهرة ، اسمها جاكلين أو ناريمـــان أو نازلـــي وبنت مدارس أجنبية . قالت الدكتورة سلمى : الخواجات ينادونها بفاطيمة .

ضحكت البنت التي تشبه ساندرا الكرواتية . ولمحتهما يبتسمان. الحكايـــة فيها سر . اسم شهرة . أخذت الدكتورة سلمى في أول لقاء

لنا إلي رسام ليصنع لها لوحة ، وهي تأخذني بعد توثق معرفتنا إلي نشـــالة لتزودني بخبرات دنيوية غائبة عني ، وتبشرني بخلفة سبعة أطفال .

الرســـم ســـحر ، والموســيقى سحر ، والنشل سحر . في تلك اللحظة مد الرسام خطوطا مضيئة وسط المساحات المعتمة في أسفل اللوحـــة ، ســـطع قدم سلمى الذي يرتكز علي الأرض وبان الصندل المفتوح ، وبرزت بشرتها البيضاء ولمعت .

رأيـــت خـــط الـــتماس بين عالمين ، وأجلت سؤالي عن سبب معرفتها بفاطمة .

٨

– لوحة ناقصة –

لوحة ناقصة غير مكتملة ، وواقع شوهته أحداث جسام .

حائر في مدينتي وضائع ، ساعاتي طويلة ، وفقدت الرغبة في العمـــل وأعمل ، هذا واجبي ، أغادر الفندق في الصباح بعد ساعتين عمل علي الأقل قبل الإفطار ، وساعة عمل بعد الإفطار قبل مغادرة الفندق ، ثم ألتقي بالمهندس كمال بك الأغبر الذي ينكد علي ، وبعدها لقــاءات مــع أحـــبة من المفكرين أرفض دعوتهم جميعا ، وأنطلق بمفـــردي إلـــي أزقـــة وبارات راقية ومطاعم ، إذا رأيت فاطمة في الطـــريق تأملـــتها مـــن بعـــيد وابتعدت عنها ، وطوال النهار أحس بـــالعطش ، وتنصحني مدرسة الأدب الفرنسي بالرجوع إلي النفرى وقراءة سارتر من جديد والعودة إلي كتب التاريخ القديم الذي أحبه ، وزيارة المقابر والمناطق الأثرية ، والكف عن التفكير في العولمة ، ثم تلحق نفسها قبل أن تغضبني وتقول : مؤقتا يا عزيزي .

سلمى فرحة بصديقنا الرسام وإذا راق مزاجها ، نصحتني بالجلوس أمامه ليرسمني ، تقول ذلك ، ولا أرى سخرية في عينيها من هيئتي أو شكلي ، وتزعم أن لوحة لي عنوانها "" المتغرب الأزلي "" سوف تكسر الدنيا . أقول ، لها طيب .

تنصحني بشراء بذلة جديدة ، وسيارة حديثة ، وشقة في العجوزة . وتبتسم وتقول : هذه كلها لزوم التغريب في العصر الحديث .

امرأة تشهد مولد حضورها المتجدد في لوحة زيتية تصمت ، وفور قيامها تتحرر من جلستها الساكنة وتروي .

تفرق الدكتورة سلمى بين ساعات الحديث وساعات الصمت . في منطقة سيدنا الحسين تتكلم . أثناء قيادة سيارتها تتكلم . في شقتها تتكلم . وأحلى كلام تنطق به سلمى في المقهى الصغير القابع علي حافة المقابر في تواجد فاطمة ، ولا أعرف هل تلتقي بها في مواضع أخرى أم فقط في حضوري .

سلمى تخلط الجد بالهزل ، وهذه مزية تنم عن عقل راجح وجميل . وتزعم أمام الرسام إن وجهي مشجع علي الرسم ، وعيناي فيها جاذبية أخاذة ، أسمعها وأضحك وغالبا ما نكون في السيارة .

أثقل علي سلمى بحديث السياسة ، تضحك أولا ، ثم تقول : جيل هزيمة ٦٧ لا يحق له الكلام . منعنا من الكلام في الماضي

بفعل ...، وفي أواخر العمر نلاحق ، نتهم .. أقول لها ، هي حكاية مـوت الأب إذن ، الكل ينتظر موت الأب ، تنظر في عيني بعينيها الواسـعتين ، فـي غير وجل أو تردد ، وتقول ضاحكة : هي كذلك وبالضبط .

صديقي الرسام تشغله نكاته القديمة أثناء الرسم ، وفي كل مرة يضـحكنا ويبكينا ، ومن الغريب أن سلمى لا تضايقها نكات الرسام السياسـية ، بـل تتقبلها في مرح ، وتظهر ضيقها فقط، من حديث السياسـة المباشـر ، وهذه المرة روى لنا نكتة قديمة ، ملخصها أنه سـمح لكـارل ماركس في نهاية عصر جورباتشوف بالظهور علي شاشة التليفزيون في الاتحاد السوفيتي قبل انهياره لمدة دقيقة ، فقال : يا عمال العالم . أنا آسف .

هـذه نكتة قديمة جدا ، ويعرفها كل من زار الكتلة الشرقية في السـابق ، وضـحكت سلمى ، ولم تضحكني هذه النكتة "" البائخة "" مثل الطبيخ البايت . ومن ضيقي سألته في براءة : وماذا يقول بوش الابـن بعـد خمسـين عاما ؟ أجابت الدكتورة سلمى بسرعة : بعد خمسـين عاما لن يسمح لبوش بالكلام من أصله . وضحكنا . قلت : معها حق .

أخيرا تحدثت ابنة الأجيال الجديدة في السياسة . ضحكت . هذه فاتحة خير . دخلت الدكتورة سلمى حلبة السياسة من أوسع الأبواب

وتخطت المحاذير ، وهل يقدر أحد في هذا الزمن علي السخرية من الرئيس بوش الابن ؟ الدنيا مقلوبة ، والرجل يمتلك ترسانات نووية وصواريخ وقرارات مجلس الأمن . شطحت صديقتنا التي تكره السياسة بعيدا .

بعد قليل توقف الرسام ، أنزل فرشاته ، دعك يديه بفوطة ، احمر وجهه وارتعشت يداه ، ترك الفوطة ، قال فجأة : اسمع يا نبيل. لا تقرن بوش بماركس . فاهم . أيوه . القياس له قواعد حتى في النكت . صحيح الاتحاد السوفيتي ذهب . ولكن النظام العالمي الجديد كما تري . حروب ظالمة ونهب منظم . بعدها قال صديقنا دون مناسبة ، وكنا نستمع إليه ولا نقاطعه : راح الاتحاد السوفيتي . راح جمال عبد الناصر . عليه العوض . ثم تناول الفوطة وذهب إلي الحمام وسعل بشدة .

ووقفت سلمى منزعجة ، طلبت منها البقاء في موضعها ، وبقيت أنا أيضا في موضعي . لم أقف ولم أتحرك . أدرت رأسي ناحية الحمام من جلستي ، قلت : وعكة عصبية بسيطة .

الحصار مفروض علي عرفات وعلي الشعب الفلسطيني ، عمليات إبادة علي نطاق واسع ، جرائم حرب ترتكب في المدن والقرى الفلسطينية ، الصور علي شاشات التليفزيون وفي الصحف ، الناس تحس بالهزيمة ، والحكام العرب يتشاورون ويؤكدون علي رغبتهم في السلام مع شارون .

لم يتبق سوى القيء والسعال .

عاد الرسام ، سألني مباشرة ، وكأنه يقرأ ما يدور في رأسي ، قال : وماذا بعد ؟ أجبته : بعد أقل من عشر سنوات ، يقدم شارون وزمرته إلي محكمة جرائم حرب .

سألني : هذا تقديرك ؟ قلت : نعم. قال : في أقل من خمس سنوات . قلت : ربما . كان صوته رائقا بعد أن تقيأ وتخلص من سعاله . ورأيت أنه سوف يكمل عمله .

السكون . الحركة . الظل . هي بضاعة الرسام . تابعت الدكتورة سلمى في جلستها وأشعة الشمس تسقط عليها من الخلف من الجانب وتابعت تشكيل اللوحة ، ورأيت دقائق الخلق . سألت أنا أيضا : وماذا بعد ؟

هذه المساحة السوداء متى تضيء ؟ وهذه البقعة القاتمة متي تنير ؟ إلي أين نسير ؟ أرقب السنة البيضاء المضيئة ونور العين الواسعة أضحك ، بدأ الفنان لوحته برسم سنة ظاهرة تحت الشفة . سلمى تضع العباءة المغربية عليها وتقول ، لبس العمل . ولم تكن هذه رغبتها في البداية ، بل رغبة صديقي الرسام . وأراها جميلة بالعباءة ، ويضايقني أنها ظنت في السابق أنني أشتريها لفتاة أخرى .

العباءة علي جسدها ولم تبزغ بعد في اللوحة . جنين لا يزال في الرحم . تعبت من متابعة حركة نماء اللوحة ومَعرفة مساراتها . اكتفيت بالنظر إلي الدكتورة سلمى في جلستها . الأصل أراه ، بينما صورتها لم تكتمل بعد . المثال في رأس صديقي . سلمى تنظر حولها . تتأمل . لا تعلق . تعود إلي سكونها ونظرتها المتأملة .

اقتربت من اللوحة .

إضـــاءة تسير في خط مستقيم من الرأس حتى القدمين . ولا بد أنه سوف يصنع لها مردودا في مناطق أخرى من اللوحة . لو أنا في مكانـــه لعريت جانب الصدر ، ورسمت الثدي البض الثري . نساء ريـــنوار . يـــا لهن من فاتنات . سلمى تبزهم جمالا ، ولكن صديقي الفـــنان ليس برينوار ، والدكتورة سلمى ليست بموديل . سلمي سيدة محـــترمة ولـــن تقـــبل تصويرها عارية أو نصف عارية . والقاهرة المحروسة ليست بباريس . وهذه هي المسألة . جسد المرأة الشرقية قلعـــتها والعـــري له رسالة ، قلت لننتظر ؟ اللوحة ناقصة بسبب قلة الإضاءة الداخلية ، سنة بيضاء تلمع ، ونظرة العين متوقدة ، وبشرة القدمين ناصعة ، ويا حبذا .. القصد رأيت اللوحة ناقصة .

أرقب سلمى في سيرها . أتأمل قدميها في الصندل المفتوح ، لا بـــد أن عين صديقي الرسام التقطت جمال قدميها في هذا الصندل ، قدم مسحوبة وبشرة بيضاء زاهية ، قلت : هذه هي المسألة .

فـــي لوحـــة لم تكتمل : قدم وعين وسنة بيضـاء . سلمى جمال وعقل راجح . لماذا أسقط الفنان بقية أجزاء الجسد ؟ المعدة . البطن. الكلى . الكبد . البنكرياس . الرئتان . الغدد . الصدر . قلت ، يكتفي بشفتيها وسنتها الأمامية وقدمها المسحوبة .

قال صديقي فجأة : فك الحصار عن عرفات ليس مهما ، المهم فك الحصار عن الشعب الفلسطيني وأضاف : طبعا .

الجنيـــن لم يكتمل . هي هجمة وحشية تأخذ دورتها قصرت أم طالـــت ، وبعدهـــا يتشـــكل الجنين وينزل من رحم الأيام . سنوات الستينات لم تكن كلها هزائم . نعم . قلت ذلك لنفسي وتضايقت .

هـــو العجـــز العربـــي المحبط الذي يمنعني من الكلام . تأملت اللوحـــة عن قرب . خطوط خفية لم تتأكد ترسم مسارات إضاءة لم تبزغ . تفاءلت . لن تكون لوحة مقبضة .

صـــديقي الفنان يرسم ، ومن حين إلي آخر يعد لنا القهوة ، ثم ينشـــغل بتوزيع حبات البلي في أركان الشقة . وإذا تحدث سأل عن فرســـان التنوير في القرن الثامن عشر ، ثم ينتقل إلي حقوق الطبقة العاملـــة فـــي العصـــر الحديث ، وبعدها يضحك ، ولا يفصح عما يضـــحكه . ســـلمى يشغلها عالمها الأدبي . تبحث عن المثال وليس الواقع . هزت رأسها وتخلصت من العباءة ، قالت : عندها موعد . جمعت حوائجها ولم تطلب مني صحبتها .

تركتـــنا وحدنـــا ، لنجـــتر أحاديـــث الماضي ، ونتأمل صناعة حاضـــرنا ، صخب مدينتي أصوات وغبار ورائحة قدم وقلة نظام . المدن العتيقة لا تمنح نفسها للغرباء ، وسرت في أحياء قديمة وحديثة لأقبض علي مدينتي . جمعت كتبا ورأيت لوحات واشتريت جعارين. قابلت أناسا يهزهم الطرب ، وأناسا يتحدثون في السياسة ، وآخرين يضربون عن الطعام بسبب الأحداث الأخيرة . بعضهم لا يأمل خيرا

فـــي الرئيس بوش وإدارته الحمقاء ، وبعضهم يرى القضية معقدة ، ومعظمهم لا يفهم في قضايا النفط الشائكة .

رأيـــتهم في نقابة المحامين كاليتامى ، نفر من أحبتي ومعارفي القدامـــى ، جلســـت إلـــيهم وتحدثنا بأصوات مكتومة لا صدى لها ، أصواتنا دهستها القطائع ، وخرجت من حلوقنا مكتومة ، لا رنين لها ولا صـــدى ، معظمـــنا اكتفى بالحديث والبعض أضرب عن الطعام حتى تدهورت صحته وساءت .

إضـــرابنا وحديثنا في نقابة المحامين ليس صحوة بل نوبة ألم . مخـــاض . لا رؤيـــة واضـــحة فيما نفعل ، ولا ساحة دولية تتفهم . تركت همومي والتفت إلي اللوحة وسلمى غائبة في داخلها .

ندمـــت اليوم بعد مقابلتي كمال بك الأغبر ، وكان المحامي قد حذرني من مقابلته خارج النيابة العامة وفي المحاكم . قال : رجل لا يؤمن جانبه .

التقيـــت بخصمي ، وتناولت إفطارا معه وشربت قهوة وخالفت نصـــيحة المحامي ، طبعا تناول الإفطار لا ضرر منه ، الضرر في صفقاته التي يلوح بها ، وتلك العقود التي يعدها لأوقع عليها .

صـــديقي المحامي لا يتفهم دوافعي ، معه حق، فهذه مسؤولية ، ودوافعـــي لا يـــتفهمها أحد ، والأمر في غاية البساطة ، أب عجوز انـــتحر واحـــد مـــن أبنائه ، أقدم له المواساة ، لا أكثر أو أقل ، لا

صـــفقات بيننا ، هو أب مكلوم وأنا رجل قدمت لأداء واجب عزاء ، هـــل يـــتفهم كمـــال بك الأغبر دوافعي ؟ أم تشغله عمارته أكثر من خسارة ابنه ؟

لا يهمنـــي رأي كمـــال بـــك فيما أقوله ، وفي ساعات الصباح المبكرة قبل قراءة صحف الصباح ، لا مشاغل لدي ، وتناول فنجان قهوة معه لا يعطلني . انتحار ابنه المهندس فؤاد في شقتي لا يهمني، المهـــم قضى الرجل وذهب . وكنت أعرف إنني أكذب ، فإذا انتحر ولده في شقة واحدة من مطلقاته ما كنت تحملت مشقة السفر وقدمت.

جئـــت لأنـــتقم ، لمـــاذا الخداع ؟ ربما فهم الرجل مقصدي ولا يفصح ، ويعد عدته لسرقة شقتي وسرقة أموالي .

لا أقـــدر علـــي صد رجل مكلوم ، ولا أقدر علي طلب مشورة المحامـــي . ذهبت إلي المدينة القديمة ، أتلمس خيالاتي الضائعة في ســـراديب ذاكرتـــي : خيالاتي التي لم يضعها رسام في لوحة ، ولم أضـــعها أنا علي الورق ، وكنت طوال السنين الماضية أظن أنها في أمـــان في داخلي ، ثم طحنتها أيامي . نفضت غبار الحذاء وضربت حافـــة البـــنطلون وجلست في مقهى حقير في زقاق ضيق ، طلبت الشـــاي الأخضـــر بعيدا عن المقهى الشهير في منطقة الحسين الذي تتردد عليه الدكتورة سلمى ورفاقها من المثقفين .

أمسك بوحدتي بعيدا عن كمال بك صاحب العمارة الذي يقتلني

بطـــريقة حديـــثه . رجل ليس من معارفي ومن أشد أعدائي ، لماذا ألتقي به من أصله ؟ أجلت البت في المسألة . فأنا لن أخسر أكثر مما خســرته ، والوقــت في صالحي ، وأنا دوما أراهن علي القادم من الأيام . فالأيام القادمة أفضل من تلك التي مضت ، أقول ذلك وغالبا ما أخسر رهاني .

صـــديقي المحامي يرى المسألة بشكل آخر ، رجل له خبرة في أروقة المحاكم ويعرف دهاليزها ، وعدته تخصص رفيع في القضايا المدنـــية . ونصحني كثيرا بعدم مقابلته ، وأنا لا أفعل . توقفت عن زيـــارة المحامـــي ، وقدمت إلي مدينتي أبحث عما يريحني من هذا الصدع .

فـــي المقهـــى تأكدت أن مدينتي مشاغلها كثيرة ولا تستمع إلي أحـــاد الـــناس ، تنازلـــت عـــن القهوة الكابتشينو ذات المذاق الفخم وتناولت الشاي في كوب مكسور متسخ ، وقلبته بملعقة معدنية صدئة ذابـــت حوافها . لا يضايقني انكسار حافة الكوب ، لا يضايقني صدأ المعلقـــة ، يضايقني فقط اتساخ الكوب من الداخل والخارج، هذا لا يصح ، اتساخ الكوب فيه خطر علي البلد .

هـــل انـــتحر صـــاحبنا بسبب شربه الشاي ذات مرة في كوب متســـخ؟ لا أظن ، لو فعلها عبقري زمانه كنت أقمت له تمثالا علي نفقتـــي وعزيـــت والده بطريقة حميمية بدلا من كلماتي الجافة التي

خرجت من حلقي باردة ، ضايقتني برودتها فرددت أمامه كل نصف دقـيقة : رحمـه الله أو رحمـة الله عليه أو له الجنة إن شاء الله . واستجاب الرجل لدعائي وظل يردد أمامي وصوته مكسور : رحمه الله . ثم يضيف : تغمده الله برحمته . ثم يكمل : رحمته واسعة .

وبين طلب رحمة الله علي المرحوم وبين إشاراته الغامضة إلي أسـعار العقارات يدور حديثنا ويرمي العجوز بسهامه ، أستمع إليه ولا أعلق .

قلـت لصديقي الرسام إنني قضيت نهاري في المدينة القديمة ، سـألني ، وماذا رأيت ؟ قلت : استمعت إلي خيالاتي . قال : وهم . فسـد علي باب الحكي قبل أن أبدأ ، وقطع علي الطريق بقوله : لا خـيالات تسـعف ، ولا حكاياتـي تنفع . وصدقته مؤقتا، لأنني لو طاوعـته قلـدت المهـندس النابغة وانتحرت ، أنا الذي لدي مئات الأسـباب للانتحار ، الفرق بيني وبين المهندس فؤاد بك أنني لست عـبقريا، ولا أتقن الرياضيات العليا ولا أفهم في العلوم النووية . أنا رجـل ضـاعت أوراقـه القديمة في الغربة وهذه وحدها تدفع إلي الانتحار .

نحيـت فكرة الانتحار ، وتبقي لي الحزن بسبب عدم الانتحار ، وعلـي حد قول الدكتورة سلمى الانتحار من نصيب العباقرة وليس الدهمـاء . وأنـا توقفت عن كتابة الشعر المنثور وغير المنثور من

عقـــود . صديقي يرسم بالفرشاة ويصور بالكاميرا ، ويمسك باللحظة الآنـــية، يقبض علي الضوء ويضعه علي البالتة ، أما أنا فحاضري يتســـرب نقطة نقطة ، يذوب كموج البحر علي شاطئ النسيان ، ولا يتبقى لي سوى الماضي ، وقد تسرب هو الآخر .

في جنيف لم أصنع حاضرا لي ، تركت نفسي لأيامي الماضية، بحـــثا عن القادم الذي تخيلته كنسمة الفجر الندية ، وللأسف لم يأت ذلك القادم أبدا .

جئت إلي منطقة الحسين المزدحمة أبحث عن ذاتي . كبار القوم يجلسون علي المقهى الشهير ، واخترت أنا مقهى متهالكا في زقاق ، أول مـــائدة فيه تطل علي درب طويل في نهايته غرزة ، في الزمن القديـــم كنـــت أعرف صاحبها وصبيانها . ربما جميعهم ماتوا . لم أذهب إلي الغرزة ، واكتفيت بالجلوس في بداية الدرب .

علي مبعدة عدة أزقة ، كنت ألتقي بالشيخ إمام رحمه الله وبأحمد فؤاد نجم أطال الله في عمره ، أستمع إلي أغان وأشعار . أحمل زاد أيامي المقبلة .

وفـــي الناحـــية المقابلة زقاق بين القصرين ، ساحة عمنا نجيب محفـــوظ . زقاق صغير ، لا بداية له ولا نهاية ، زقاق مسدود ، لا يعـــرف المطـــارات ولا الطائـــرات ولا السيارات، بل هي ركائب الحمـــير التي تركن علي جانبيه لتزاحم الناس في بيوتهم . الدكتورة

سـلمى معهـا حق ، الناس لا تطير في أدبنا المعاصر ، لأن حارة عمنا نجيب محفوظ لا تعرف المطارات .

جاء الشاي .

المذيـاع علـي آخـره يزن ، ويبخل علي بأغنية للشيخ إمام ، أرض الزقاق غائبة بسبب زحام الناس ، أناس تدخل وأناس تخرج . كـتلة محـدودة مـن فراغ أعلي الرؤوس تصعد إلي السماء . نافذة ضـيقة تتصل بالأفق . الأفق الواسع يضيق في هذا الدرب . ووسط هـذا الضـيق ، يبـيع الـناس الهـواء ويتحايلون علي نكد الدنيا ، وتصاريف المعيشة .

عجـوز يبيع الترمس ، صبي يبيع البخور . امرأة تتسول وتبيع مـناديل . فتاة تقرأ الودع وتصلي علي النبي . باعة صحف . باعة عاديـات فخـار . باعة مقويات جنسية . إحليل تمساح وأعشاب من الهـند . عطور تنافس فساء الكلاب في روائحها ، اشتريت زجاجة عطـر صغيرة ولم أشمها، قلت : لسلمى. وضعت دليل زيارتي إلي مـنطقة الحسين في جيبي .. إذا حدثتني عن عزلة الكتاب ، وتقوقعهم فـي الهم ، أخرجت زجاجة العطر ، قلت : عطر الجمال من سيدنا الحسين يا سلمى .

الباعة لهم جولات . ذهب باعة العطور والأعشاب وحلت جولة باعـة المزاج : معسل . تمباك . أفيون ؟ حقن الإكس فكس والعياذ

باالله . باعة ريحان . باعة شيح وشربة الحاج داود أو زغلول نسيت، هي شربة تشفي من الأمراض وتنزل الدود .

ووسط هذا الزحام كله افتقدت بائع الكتب الأعمى ، منه تعرفت علـــي ألـــف ليلة وليلة في إحدى طبعاتها القديمة ومنه قرأت النفرى ونفـــح الطيـــب وألفية ابن مالك وشروحها وو ومات هذا البائع قبل ســفري بســنوات ، وكنت من زبائنه المقربين ، ويتحفني بكنوزه . حوائـــط مدينتـــي بعضها تهدم وبعضها تجدد . أجساد النساء تبدلت جغرافيـــتها وتغيرت . أصبحن أكثر رشاقة، وأكثر طولا . هذه سرة مدينتي ، أسبح فيها ، وأقول : دوار يا زمن .

انتهت جولتي ولم أمسك بعنق مدينتي أو حتى أطراف أصابعها، ولما سألني صديقي الرسام عما فعلت في صباحي بعد مقابلة صاحب العمارة ، قلت : اشتريت زجاجة عطر من الحسين . قال : هذا كل شيء . قلت : نعم . لم أقل له أنني طرت في هواء . وقفت علي قمة جـــبل . نزلـــت أودية . رأيت بحارا . هبطت إلي كهوف مظلمة . نزلت . طلعت . دق جرس التليفون ، قال صديقي الرسام : تفضلي. بعدهـــا أضـــاف : نحن نناقش أمور العالم . بعد فترة صمت ، قال الرسام : نتكلم في السياسة . عرفت أن الدكتورة سلمى علي الجانب الآخر ، وفي الحقيقة كنا لا نتكلم في السياسة ، لكنه قال : أننا نتكلم فـــي السياسة . ولم يضايقني ذلك . وضع السماعة ، قال : الدكتورة

سلمى انتهت من مشوارها ، وتحت باب العمارة . قلت : تتفضل .

أســـعدني قــدوم الدكتور سلمى وضايقني في آن . هل أقدم لها زجاجة العطر ؟ لا يصح . الدكتورة سلمى تستحق زجاجة عطر من بـــاريس . نسيت أسماء ماركات العطور . طبعا . رجل هندامه غث وأحذيته قديمة مقاساتها لا تناسب قدميه لا يفهم في العطور .

فور قدوم الدكتورة سلمى قدمت لها زجاجة العطر الرخيصة ، سألتني : متأكد أنها لي ؟ قلت : طبعا .

شــكرتني ووضعت زجاجة العطر في حقيبتها . لم تفتح سلمى زجاجة العطر ، وفتحت فمها وتحدثت ، كانت فرحة بعض الشيء ، ولا أخبار تفرح ، قلت : ربما بسبب هديتي الرخيصة .

وطوال جلستنا التي طالت في تلك الليلة ، لم تفصح سلمى عما يفـــرحها وتكتمت أخبارها عنا . ولم يضايقني ذلك ، كنت فقط فرحا لفرحها .

٩
– الشبح –

طلب مني مدير الفندق تجديد الحجز لأسبوعين علي الأقل حتى أتمتع بالخصم ، قال : هذا موسم سياحي .

وافقـته وجـددت الحجز ، قال : الخصم لا يسري علي الفترة السـابقة لأنني لـم أقدم ورقة الخصم عند حضوري ، وافقته وأنا أعرف أنه يكذب .

هـذا الفندق في وسط البلد ويوفر لي خزانة أضع فيها أوراقي الخاصـة جـدا، وأتسـلم وأرسل فاكسات في يسر ، كما أن خطوط التلـيفونات تعمل ، وافقت علي شروط الرجل الذي يكذب ، بدلا من نقل أمتعتي إلي فندق آخر ، وإخطار أهلي ورفاقي بعنواني الجديد ، وهـذه مهمـة ليسـت سـهلة ، بسبب كثرة الكتب التي اشتريتها ، والأوراق التي كتبتها أو حصلت عليها .

الحـياة فـندق كبـير وكلنا مسافر بلا إياب ، لماذا نكد العيش والمساومة ؟ تقبلت شروطه بصدر رحب ، فمن الخطأ تصور إقامة

صداقات مع العاملين في الفنادق الكبيرة ، فالتعامل مع هؤلاء الناس يعـتمد علـي نظرية الغياب وليس الحضور وشعارهم : ادفع أعلي سعر . خذ أحسن خدمة . فارقنا .

لمـاذا إذن المساومة وكلنا ذاهب إلي حاله في نهاية المطاف ؟ هي اللعنة . أناس كالنسيم وأناس كرياح الخماسين . أناس كلهم رقة، وأناس كأعاصير الشر .

ومـن جانبـي كنت في هذا الفندق مستريحا ، علي مقربة من شارعي ٢٦ يوليو وشارع طلعت حرب ، في وسط البلد، أسير ليلا فـي شوارع القاهرة مع الدكتورة سلمى ، ونحس بألفة شديدة ناحية القاهرة وناسها ، وليل القاهرة جميل .

فـي النهار أجد تاكسيات تهرب بي إلي أطراف المدينة ، أعمل فـي نهـاري بعـد تخلصي من كمال بك الأغبر وولده الميت ، لا زيـارات ولا مضايقات من أحد ، ساعات نهاري يشغلها عملي في هـدوء ، ابتسمت عندما تذكرت كلمة هدوء ، وكنت جالسا في بهو الفندق ، وضجة الطريق تخترق طبلة أذني .

القاهرة آتون من الضجة الساخنة ، أصواتها دبابيس تشك الجلد، ويحسـن حذف كلمة هدوء من قاموسها ، وقصدت فقط أنه .لا توجد مضايقات ، ومن أين تأتي المضايقات ؟

أقطـن فـي فندق بعيدا عن مسكني ، وقلة من أقاربي ورفاقي

يعرفون عنوانا لي . المهم . عملي يسير سيرا حسنا . القاهرة آتون ضجة ، وعملت دون مضايقات : أقرأ ، أدون ، أترجم ، أكتب خطابات وتلغرافات . أمارس عملي بطريقة حسنة ، لماذا الرحيل ؟ لهذا قبلت شروط مدير الفندق وسددت الفروق المالية عن الفترة الماضية نقدا .

رحب بي مدير الفندق بعد سداد الفروق المالية في حرارة ، ودعاني إلي فنجان قهوة في غرفته ، قلت : نقودي فعلت فعلها ، وكنت ساذجا .

الحكاية أكبر من مسألة عدة مئات من الجنيهات تذهب إلي خزينة الفندق ، كنت أظن أن الفاكسات التي تصلني لا يطلع أحد عليها ، فهي مكتوبة باللغة الألمانية ، وهذه لغة صعبة ، لكنني رأيت معظم العاملين في الفنادق في مصر في السنوات الأخيرة يعرفون الألمانية ، ومدير الفندق أيضا يعرف الألمانية ، لهذا حدثته بالألمانية إلي جانب العربية قبل مجيء القهوة ، التي سألني عن نوعيتها فقلت: سكر زيادة . فابتسم ، كان يظن أنني أتناول القهوة سادة مثل الأجانب .

انتظرت أن يصارحني بمخاوفه ، ويطلب مني مغادرة الفندق ، لكنه رحب بي ، وقال فجأة ، إنه يكره كل زعامات الليكود من بيجين إلي شارون ، ثم أضاف ، وكذلك يكره جورج بوش الصغير.

لم أقل له إنني أوافقه ، وسألني مباشرة عن محكمة جرائم الحرب ، وقال إنه لا يفهم سبب تقديم زعيم الصرب إلي المحكمة وإفلات زعامات الليكود ؟

أخرجت من الحقيبة الورقية التي لا تفارقني كتيبا صغيرا ووضعته أمامه ، قلت : هذا الكتاب يشرح تفاصيل المسألة .

قلب الرجل في الكتاب وطلب نسخة ، تركته له . قال، إنه محام ويفهم في القانون الدولي ، لكنه لم يتعمق في هذه المسائل بسبب عمله في السياحة . ابتسمت ، قلت شيئا غير واضح . قال : إذا كنت أود فاكسا خاصا في غرفتي ، لا مانع .

رحبت بفكرته في التو ، وشكرته . قال : اتفقنا .

حصلت في أقل من ربع ساعة علي فاكس في غرفتي ، وكنت أظنه لن يفعل قبل يومين أو ثلاثة ، هذا الفاكس الخصوصي يوفر علي النزول صباحا إلي البهو قبل الساعة الثامنة لأقف أمام موظف استعلامات غبي ، أطلب منه إرسال أوراقي التي أكتبها بالألمانية عن قصد ، فيطلب رقم التليفون ، ويقول طيب ويتركها أمامه ولا يرسلها .

قال مدير الفندق في فخر : هذا فاكس حديث ، يكاد يعمل وحده، ولن يتعبني .

ابتسمت .

الأجهـزة المـتقدمة تشـغيلها صعب ، وتتمتع بذاكرة جهنمية وترسـل الأوراق بطـريقة تلقائية إلي أكثر من ألف عنوان في كافة أنحاء المعمورة في لحظات .

أنـا طـبعا لست ساذجا ، وكنت أعرف أن هذا الفاكس سوف يسـبب لي متاعب ، ولم أناقشه في هذا الأمر ، وخجلت أن أقول له إنني فـي حاجة إلي فاكس متخلف لا ذاكرة له ، لكنني لم أناقشه ، واحتفظت بتخوفاتي لنفسي ، فهذه هي العولمة ، لا أسرار ، ورسائل الـناس مكشـوفة علي الإنترنت ، وإلي جانب خوفي الشديد من هذا الفـاكس الحديـث ، كنـت طوال الوقت مسرورا لأن القاهرة تقدم تسـهيلاتها فـي تلقائـية من حيث لا يدري أحد ، وإلا كيف يتحرك عشـرون ملـيونا من البشر ويرمحون في ساعة الذروة في شوارع ضيقة ؟ لا بد أن الدنيا تسير بطريقة أو أخري .

جربـت الفـاكس أمام مدير الفندق ، أرسلت ورقة كتبت عليها بعـض كلمات مديح، إلي مدير الفندق من غرفتي ، وتسلمها موظف الاستعلامات الغبي ، وصعد بها إلي غرفتي ، قال مدير الفندق :

ـ فاكس حديث .

وافقته .

سألت مدير الفندق عن ماكينة تصوير ، قال : هناك واحدة في الإدارة ، ويمكن استخدامها في حالة الضرورة ، فهي لا تطبع أكثر

مـــن عشر ورقات في المرة الواحدة وتسخن . قلت : لا أطبع أكثر من ورقتين أو خمس ورقات في المرة الواحدة .

قال : اتفقنا .

أكتب أوراقي وأصورها وأرسلها من هذا الفاكس ، وأبحث عن فـــاكس آخر في منظمة حقوق الإنسان لبعض الأوراق التي لا يجوز وقوعها في يد غريبة ، وتتعلق بآخرين ، أو مذكرات قانونية .

حلـــت معظـــم مشـــاكلي في جلسة واحدة مع مدير الفندق علي فـــنجان قهوة ، وتأكدت من عمل الفاكس ، ولم أصرح لمدير الفندق أو غيره بتخوفاتي من الفاكس .

إرسال أوراق من المهام الثقيلة علي قلبي في جنيف ، فما بالنا فـــي القاهرة ، وفي حاجة إلي سكرتارية ، الترجمة والكتابة أسهل ، وفي القاهرة تتعقد المسألة بسبب قلة الحبر أو نقص الورق أو انقطاع التـــيار الكهربائي أو قلة الصيانة ، وكنت أعرف أن هذا الفاكس لن يعمر طويلا معي ، وفرحت به مؤقتا .

تركـــت مسألة الفاكس جانبا ، وتأملت مسألة السير في شوارع القاهـــرة ، كـــيف يتحرك الناس ؟ لا أحد يعرف . وزير النقل بكل ســـلطاته ، ومحافظ القاهرة بكل أجهزته لا يعرفان ، فالقاهرة مليئة بأعاجيـــب تـــتجاوز قواعد المنطق ، وتختلط فيها الحقائق بالأوهام لتصنعْ عجينة سحرية .

الناس تتحرك في القاهرة وهي واقفة في مكانها .

استرحت لهذا التفسير الخرافي : أليست الحركة في الثبات من أولويات نظرية النسبية . من يود فهم نظرية النسبية عليه فقط السير في شوارع القاهرة ..

زاولت عملي من غرفتي في الفندق في حماس في التو ، أرسلت نسخا من أوراق ترجمتها قبل نزولي إلي صالة الطعام لتناول إفطاري ، وبعد الإفطار عدت إلي غرفتي وتسلمت ردودا من خبراء في منظمات دولية وجمعيات أهلية مشغولة بالهم الفلسطيني ، وتأخرت علي كمال بك الأغبر بسبب الفاكس ولم أنزل من غرفتي في موعدنا ، واعتذرت له بعدها بشدة عن التأخير ، وتوسعت في الحديث معه ودعوته إلي شرب القهوة والعصائر وتناول الحلويات .

سهل الفاكس اللعين من مهمتي ومن جانب آخر توطدت علاقتي بكمال بك الأغبر صاحب العمارة بسبب هذا التأخير ، وربما لو كان ابنه الميت فؤاد بك معنا كانت معرفتي به قد زادت ، لأنني كنت سوف أسأله عن كيفية تعطيل عمل ذاكرة الفاكس ومنعه من إرسال نسخ من الرسائل إلي آخرين ، وطلبت مساعدته في إعادة برمجة الفاكس من وراء مدير الفندق ، أو علي الأقل يطلعني علي ما يقوم به هذا الفاكس من وراء ظهري .

وطبعا هذا من حقي .

- البحـــــر -

تعبــت من العمل ومن السهر ، ومن كمال بك الأغبر الذي ظل يراوغني في خبث ودناءة ، رأيت السفر إلي الإسكندرية يومين أو ثلاثـــة علـــي الأكثر . عدة أيام راحة أقضيها في فندق بعيدا عن شقتي المغلقة في منطقة ستانلي منذ سبعة أشهر ، وفي الفندق أطلب فاكسا في غرفتي وأتابع عملي .

الإسكندرية جميلة في شهر إبريل ، مطرها خفيف إذا أمطرت ، وجوهـــا معـــتدل في بدايات الصيف ، سألت سلمى الرأي في مسألة ســفري ، قالت : حسنا تفعل . ونصحتني بالنزول في فندق بدلا من شــقتي المغلقـــة فـــي ستانلي . سألتني عن موعد السفر ، قلت : لا أعرف .

فـــي نيتـــي السفر ولم أحدد موعدا ، تركت نفسي لبحر القاهرة ونظرية النسبية : لقاءات دون مواعيد ، أحاديث دون نهاية ، سهر ،

كتابة .

أوصتني سلمى ألا أسافر فجأة ، وأن أترك رقم تليفون الفندق ، قلت : طبعا . أضافت أنها ربما تلحق بي يومي الخميس والجمعة .

كانت سلمى قد دعتنا إلي عشاء في منزلها ، وأعدت طعاما لنا بنفسها ، وتفننت ، وتخلف صديقنا الرسام في آخر لحظة ، بسبب زيارة معارف له من لبنان أو الأردن ، لم يفصح ، وقال ، إنه ربما يلحق بنا قبل العشاء ، لكنه لم يأت .

كنت منذ البداية أعرف أن الرسام لن يأتي ، فمشاغله كثيرة هذه الأيام . وألمحت إلي صديقتنا الدكتورة سلمى بذلك ، ولم تصدقني ، لكنه لما تأخر ، تقبلت الأمر غاضبة .

قالت : يعتذر يا أخي علي الأقل . قلت : غدا يعتذر . زعمت أنها قلقة الآن ، واعتذاره غدا لن يفيد .

وكانت سلمى بالفعل قلقة . ووافقتها علي أن اعتذاره غدا لن يفيد ، ولم أعرف سر القلق الذي حط عليها فجأة .

هو صديقي ، وأنا أتحمل مسئولية غيابه . سألتني سلمى عن العمارة القديمة ومتي أجر شقته ، قلت لها ربما في عام ٧١ بعد خروجه من المعتقل أو بعدها بعدة سنوات ، لا أعرف ؟

سألت : هو أعتقل .

قلت : نعم .

سألتني بسبب الرسم ؟

ضحكت ، قلت : ليس بسبب الرسم . قالت : طيب .

تناولت شيئا خفيفا ، وقد سد حديث المعتقلات نفسي عن الطعام، ومثل سيدة بيت أرستقراطية نحت حديث السياسة والحرب والمعتقلات جانبا ، وتغاضت عن غيابه من أجلي ، وحدثتني عن الفن ، والموسيقي ، وابتعدت عن موسيقي تحضير الأرواح وقالت : عزف منفرد علي العود ؟

قلت : لا بأس من سماع العود .

سمعت تقاسيم علي العود . ألحان تمس القلب . العود آلة فذة لها شدو وفيها حنين وشجن ، والشجن الجماعي يحط علي وادي النيل ، ولا أحد يغرف منه ، شجن الناي مفرد، وشجن العود جماعي، لكن من يفهم ؟

مقامات العود لم يكتشفها أحد . قلة علم وقلة موهبة . سمعت العزف ، قلت : هذا سحر .

من طريقة العفق عرفت أن عازف العود عراقي ، فعزف المصاروة فيه طرب وليونة وميوعة تناسب الأفراح والرقص البلدي ، ويفتقد الشجن الذي يناسب أهل الفكر ، وضايقني أن تأتي أفضل معزوفات العود من خارج معهد الموسيقي العربية الحائر بين وزارتي المعارف العمومية ووزارة الثقافة وبين محافظة القاهرة منذ

أكـــثر مـــن خمسين عاما . قلت لسلمى فجأة، الشجن غير الحزن ؟ قالت : طبعا . الشجن يعزفه الشعراء ، والحزن تعزفه النادبات .

ضحكنا .

سألتني عما إذا كنت بدينا في سنوات شبابي ؟ قلت : كنت بدينا ربعة .

دورت سؤالها في رأسي ، ثم سألتها كيف عرفت ؟

قالـــت : هذه البدلة الكالحة واسعة جدا . رمت الدكتورة سلمى رميتها وأفصحت ، ولم يضايقني قولها ، ابتسمت فقط ، قلت : نعم . هذه البدلة عمرها عشرون عاما . بدلة قديمة تريحني ، وأسافر بها . قالت : سوف أحرقها في الحمام . قلت : لا مانع .

في رأيي هذه قسمة عادلة .

قالت سلمى إنها قرأت مجموعة مقالات عن باب اللوق وشارع طـــرفة ابـــن العـــبد وتاريخ البناء وسجل ملكية العمارة التي يقطنها صـــديقنا الرســـام وانـــتقالها مـــن مالك إلي آخر . وضعت السكين واستمعت . روت .

حدثتنـــي الدكتورة سلمى عن أرض العمارة التي يقطنها صديقنا الرســـام ومســـاحتها ، وطريقة البناء وانتقال ملكيتها من أجانب إلي مصـــريين حتى تم بيعها في عام ١٩٥٨ إلي شركة تأمين مصرية . أوردت تواريـــخ وأنـــا لا أحتفظ بتواريخ في رأسي ، وأقول حرب

الخلـيج الثانـية وقعت في التسعينات ، وأعود إلي أوراقي لمعرفة التاريخ الدقيق باليوم والشهر والسنة ، فما بالنا إذا كانت الأمور تعود إلي الحملة الفرنسية وقوات نابليون .

استمعت .

أرض العمـارة كانـت إسطبلا لقوات نابليون بونابرت ، وهذه سـهلة ، خـيول نابليون وصلت إلي منطقة الأزهر . العمارة بنيت بشـكلها الحالـي منذ سبعين عاما علي أرض الإسطبل ، وقد بنتها شركة إيطالية لحساب واحد من الإقطاعيين الباشوات .

المهـم العمارة بنيت علي أرض إسطبل لخيول نابليون ، وماذا بعد ؟

انتهت معزوفة العود ، سألتني سلمى وكانت تتابع طعامها ، هل أود سماع موسيقي تحضير الأرواح ، أم موسيقي سبيليوس ؟

ضحكت .

سـلمى تحـب تلك الموسيقي الغامضة المريحة ، وقد استمعت إلـيها عـدة مرات وأحببتها ، ومنذ ترددي علي المقهى المعتم علي حافة المقابر ، بدت لي موسيقي مريحة ، ليست دسمة ، لكنها ليست خفيفة . موسيقي غريبة من مقامات ليست مألوفة تحلق في سماوات بعـيدة وفـيها شـجن يتحول بقدرة قادر إلي فرح قرب قفلة اللحن الناقصة .

قلت : موسيقي العفاريت مريحة .

قالـت : موسيقي روحانية خالصة . وتسللت ألحان عذبة . هي موسـيقي مـريحة بـالفعل ، وأحضرت سلمى علبة كبيرة ملونة ، وضعتها إلي جوارها علي المائدة ، وسألتني قبل استكمال طعامها ، عما في هذه العلبة ؟

قلت : زجاجة عطر . أدوات مطبخ . قطعة صابون لها رائحة.

ابتسمت ، قالت : كلا . قلت : كرافتة لي ؟ قالت : ليس قبل أن تشتري بدلة جديدة .

قلت : طيب .

كنت آكل بصعوبة وأتكلم بصعوبة بسبب آلام في بطني دهمتني فجـأة لحظـة نزولـي من السيارة أمام البيت . مددت قدمي وساقي بطـريقة متسرعة بعض الشيء ، فتمزقت عضلات بطني ، أو هكذا أظـن ، عدلـت ساقي تحت المائدة ، وقلت : غدا أزور الترزي . أشتري بدلة جاهزة ، وأفصل اثنتين . ابتسمت ، قالت : إنها لا تظن إنني أفعل .

سألتها ، لماذا سوء الظن بي ؟ قالت : مثل الملابس الشيك التي أحضرتها لي من جنيف وروما وباريس حيث ملوك الموضة .

حدثـتها في هذا الأمر ، ولم أقدم لها شيئا من الملابس . وكيف اقـدم لهـا ملابـس تناسـبها أو لا تناسبها وأنا لم أحضر شيئا من

الملابـــس؟ ربما فكرت في مسألة الملابس المحزقة التي تمنعها من السير وتجعلها تعرج ، وخرجت من فمي كلمة .

أكلـــت كفايتـــي ، وأبطأت ، وكانت هي جائعة وتأكل ، تناولت ناصـــية الحديـــث حتى أدعها تأكل علي راحتها ، حدثتها عن زحام القاهرة ونظرية النسبية والحركة في الثبات ، ضحكت ، قالت : هي كذلك القاهرة .

وكـــنا نستمع إلي الموسيقي الروحية التي بدأت أحبها ، بعد أن كنـــت أطلق عليها موسيقي الجن والعفاريت ، وتبينت أنها موسيقي راقـــية ولا بـــأس بها . وحانت مني نظرة إلي الخلف بعد أن توقفت عـــن الأكـــل ، رأيت علي البوفيه ملصقا للوحة الجنازة ، لكوربيه ، التي قالت إنها تضعها علي مكتبها ، وهذا ليس مكتبها ؟

ربمـــا نقلـــت الملصق من أجلي أو تمتلك أكثر من ملصق لهذه اللوحة الشهيرة . المهم رأيت الكلب في طرف الصورة وضحكت .

اعتدلت في جلستي ، بعد أن لوح ظهري لما التفت إلي الخلف ، ولـــم أحدثهـــا عـــن الكلـــب . كان الألم في أسفل البطن يشدني إلي الجلـــوس منحنيا علي المائدة ، وكنت أعرف أن آلام الفتق تزيد في الشـــتاء ، وتضيعها المشروبات الساخنة ، وانتظرت حتى تنتهي من طعامها .

سألتني الدكتورة سلمى عن الأوضاع العالمية الراهنة ، وما بعد

العولمـــة ، وقالـــت يبدو أن الأيام القادمة سوداء ، وكنت أعرف أن الأيام القادمة أشد سوادا مما تظن ، قلت : لا حل في القريب العاجل.

تحدثـنا فـــي المشاكل ، ولم أخبرها بأن الحل في يد التنين إذا استيقظ ، لأنني لو قلت لها الحل في يد التنين ، ترهقني بالأسئلة عن التنين وأصله وفصله ، وما أقصده ؟ وهل هو شارون أم إسرائيل أم أمريكا ؟ وأنا طبعا لا أقصد شيئا من ذلك .

كان الألم يخفت ثم يشتد مع تحريك قدمي ، الحديث عن الكلب أســهل من الحديث عن التنين ، وبقيت أنظر إلي الكلب ، سألتني ، أعجبك الملصق ؟

قلـــت : طــبعا . قالـــت : عندي ثلاثة ، واحد علي مكتبي في الجامعـــة ، وواحـــد فـــي غرفة النوم ، وواحد هنا ؟ قلت شيئا وأنا أستعيد توازني بعد أن خفت حدة الألم . سألتني عما بي ؟ قلت : آلام الفتق . قامت . أحضرت الملصق ووضعته في مواجهتي إلي جوار العلبة المغلقة . بقيت أنظر إلي الكلب ، ونسيت التنين حتى عادت ، وكانت قد انتهت من طعامها ، قلت سوف أجلس في الصالة . قالت: طيب . نأخذ الشاي هناك ، علي الكنبة .

أمسكت سلمى بالعلبة ، وسألتني عما بها ؟

قلـــت : لا أعرف . ولم أقل لها هذه المرة ، كرافتة لي أو شيئا من هذا القبيل . قالت : طيب . وعادت إلي المطبخ .

استعنت بالصمت علي آلامي ، وحبست أقوالي السياسية التي أعتقد في صحتها عن سلمى وبخلت بالشرح ، وضايقني ذلك ، ولكن ما حيلتي والعالم كله ناقص عقل والدنيا واقفة علي رأسها ؟

ما وقع لجارودي معروف، متاعب نعوم تشومسكي ليست خفية. تصريحات أعضاء الكونجرس أقوال حشاشين . سألتني سلمى : وماذا بعد ؟ قلت : الجحيم قادم . سألتني عن السلام : قلت : تم دفنه في كامب ديفيد الأولي وليس الثانية ؟

هذه أولي إشاراتي ، أطلقتها بعد أسبوعين من تعارفنا واتكلت علي الله . كنت علي يقين أنها تفهمني ، أفصحت ، وحسنا فعلت ، وافقتني سلمى وزادت وروت وقائع كانت غائبة عني بسبب السفر .

تضايقت فقط من قول سلمى لنقتل القمر. أنا يا سيدتي لا أود قتل القمر . ومن في هذا العالم يود قتل القمر ؟ أنا أحلم فقط بقتل العنكبوت ، شبكة العنكبوت هي .

استقر رأيي علي السفر إلي الإسكندرية ، والهرب من هذه الأحاديث والكف عن هموم السياسة ومشاغلها ، الصحة لم تعد تسمح برفاهية العمل العام ، في الإسكندرية لا أعرف أحدا سوى البحر ، أصادق البحر ، ذلك العملاق الراقد الذي افتقده في جنيف .

البحر يقول ولا يسأل ، يبوح ولا يناقش ، وأنا أود سماع بوح البحر . البحر عملاق وموجه سيل أحلام ناقصة ومكتملة ، فضاؤه

خيال ، ملمسه سحر . أقف أمامه كإنسان بدائي وأقول هناك عند خط تماس المياه مع الأفق تقبع نهاية العالم .

لا أود قراءات عن نحر البحر ولا تنبؤات الأرصاد الجوية عن درجة الحرارة وارتفاع الموج .

اتـــرك فقط نفسي للبحر : أنزل لدقائق . أغسل قدمي . أرطب وجهي بالمياه المالحة ، ثم اجلس طوال اليوم علي مقربة من الموج المتناثر علي الشاطئ ، استنشق طعم اليود المتطاير في الجو وأبلعه، وأتوقف عن التدخين .

الـــيود يـــرفع ضـــغط الـــدم ويلهـــب الجلد ، أعرف أنني في الإسكندرية .

كراسي البحر هشة تغرس في الرمل وتميل ، عدلت جسدي في الكرســـي ، غصـــت في مقعدي إلي الخلف . رأيت شبكة عنكبوت كبيرة معلقة في الجو وأطرافها تسقط في البحر عند نهاية الأفق .

شـــباك العنكبوت هشة ومتماسكة ، شباك العنكبوت متانتها في خفـــة خيوطها الطويلة ، شباك العنكبوت في حاجة إلي فنان قدير ، ليصنع منها لوحة كبيرة بعرض البحر ، قناديل البحر علي الشاطئ ، وشبكة العنكبوت في نهاية الأفق .

لوحـــة لا يصنعها سوى سلفادور دالي . نعم . سلفادور دالي . قـــناديل الـــبحر. الشـــمس . الأفق الواسع . كثبان الرمل . القمر .

الساعة المكسورة . وأضفت إلي اللوحة : الدبابات . المدافع . القنابل النووية . الصواريخ . نجمة داود .

رأيت نجمة داود تعلق بأطراف شبكة العنكبوت وفي ذيلها قنبلة نووية .

الكرسي الهش يهتز تحتي . يغرز في الرمال ويميل بي . كراسي البحر دائما أرجلها الخلفية مكسورة . الدكتورة سلمى لا تنزل إلي البحر بالمايوه وهي بطلة سباحة ، تخجل من لباس البحر . هي حرة . تسبح في حمامات المدينة وحمامات الفنادق ولا تنزل إلي البحر . أنا أيضا لا أنزل إلي البحر بالمايوه . أجلس علي الشاطئ بملابسي الكاملة بعد رفع رجل البنطلون . أبلل قدمي وأرش وجهي بالمياه المالحة ، وإذا كنت في حالة طيبة ارتديت الشورت القصير .

أسير عدة أمتار في البحر ، تصعد المياه إلي نهاية الساق . أرفع رأسي ، تكون شمس الصباح خفيفة ، أرى شبكة العنكبوت معلقة في الأفق . أتشاءم ، أترك الشاطئ وأذهب إلي مقهى أدخن الشيشة .

أعدت الدكتورة سلمى لي مشروبا ساخنا لتهدئة الفتق ، ونصحتني بوضع رباط لاصق ، وكنت قد تغاضيت اليوم عن لصقه علي الفتق ، بسبب عجلتي في النزول لمقابلة كمال بك الأغبر بعد أن تأخرت عليه ساعتين بسبب الفاكس . ووضعت علي طرف

المائدة بعيدا عن المشروب مجموعة مراجع حديثة عن ما بعد الحداثة ، كنت أعرف بعضها ، ولا أعرف بعضها الآخر .
أحضرت العلبة الملفوفة ، فتحتها ، قالت : رمان بلي ليلعب به بندق.
ابتسمت .

قلبت في واحد من المراجع وأنا أفكر في بندق . وأخرجت منديلا وجففت قطرات مياه تتسلل من فتحتي البنطلون الواسع إلي قدمي . مسحت قدمي والحذاء ووضعت المنديل في جيبي ، بندق يحب اللعب برمان البلي . وهذه مياه البحر . بندق يحب اللعب برمان البلي ويخاف من مياه البحر . سلمى تروح وتجيء وتتكلم . امرأة فتحت نفسها للكلام . اقتربت فجأة مني . صرخت : قلبت الشاي . حرقت نفسك . الأريكة مبلولة . بقعة كبيرة .

تركتني وجرت إلي الحمام .

كوب الشاي في موضعه لم ألمسه . هذه ليست مياه البحر التي تبللني . نصفي الأسفل كله مبلول . طلبت مني سلمى تغيير ملابسي في الحمام . قمت . تخلصت من ملابسي المبلولة ، ولفتني سلمى بالعباءة المغربية . سألتها عن الأريكة ، قالت : لا تهتم .

في الحمام لم تصلني موسيقي سبيليوس ، وبدلا من سماع خاتمة المقطوعة الموسيقية سمعت كلبا ينبح أمام الشقة ، قلت : البروستاتا اللعينة تحركت . ولم تسمعني سلمى ، وقالت شيئا عن البحر .

١١

- الغواية -

ركبت رأسي وسرت علي درب الغواية .

راقنــــي كــــلام صــــاحب العمـــارة كمال بك القاسي الشندويلي المحمــودي بن عمران الأغبر ، وهذا هو اسمه ولقبه وفق الأوراق الرســمية ، اســتمعت إليه من وراء ظهر أصدقائي وناسي ، حقيقة كنت لا أقول له نعم أو لا ، استمع فقط، لا أعد ولا أبت فيما يقول ، لا أهز رأسي بإشارة ولا أرسم علي وجهي بسمة ، حتى لا تساوره ظنون أنني أوافقه ، لكنه خدعني .

كان دوري السماع إلي رجل مكلوم بسبب موت ابنه ، وأسبابي إنسانية بحتة ، وخدعني الرجل مرة أخرى واقتنص فرصة صمتي ، وبعـــد أســـابيع كانت عروضه التي ألقي بها كلمة كلمة وجملة جملة وفاصـــلة بعـــد فاصلة ونقطة بعد نقطة ، أثناء شرب القهوة معي قد اكتملت بنودها .

طـــبعا هو لم يفعل ذلك خلال جلسة واحدة أو جلستين أو خمس

أو سبع جلسات ، وإلا لكنت قد تنبهت ، فأنا لن تفوتني هذه اللعبة ، لكــنه استدرجني وألقي بعروضه علي مسامعي بالقطاعي ، في كل مرة جملة .

كشفت مناورته ، واعترفت بفشل خطتي ، فتوقفت عن السماع وبــدأت الكلام ، ألقيت بدلوي مهاجما وفندت أقواله ، استمع إلي في اهتمام ، وكانت غلطة عمري .

في بداية اللقاء أسأله عن صحته ، خاصة ضغط الدم والسكر ، ويقــول إنه يقلل من الطعام ، ويحرص علي تنفيذ تعليمات الأطباء ، وبعدها نتناول ما جاء في الصفحات الأولي للصحف من أنباء محلية وعالمــية فــي إيجاز ، وهذا أمر عادي طبعا في الظروف الحالية ، وكل الناس يشغلها ما يدور في العالم هذه الأيام .

فــي أيام أخرى كنا نكتفي بمناقشة مباريات كرة القدم ، وأخبار الــدوري العام والمدربين ، وأنا لا أتابع مباريات الكرة من أصله ، لكن تصلني كلمة من هنا وكلمة من هناك ، أقول له الأهلي أبدع أو الزمالك أبدع ، فيصحح أقوالي ويزودني كمال بك الأغبر بمعلومات ثمينة .

بعدهــا كــنا نستعرض صفحة الوفيات ، وهذه لا خطر منها ، فــرجالها ماتوا أمس أو أول أمس ، وتعازي الأربعين رجالها ماتوا من أربعين يوما ، وتعازي الذكري السنوية لا أهمية لها ، وكنا نمر

علــيها مرور الكرام، أما إذا تطرق الحديث إلي أسعار الأسمنت أو البــناء أو أسعار العقارات أو الأسهم أو وزارة الإسكان والتعمير أو وزارة الإصلاح الزراعي أو وزارة الداخلية كنت أتتبه علي الفور ، أضـــع لساني داخل فمي ، وأثبت يدي الاثنتين علي المائدة واسكنهما حتى لا يعتقد أنني حركت يدي ووافقته علي شيء .

إذا أشار كمال بك الأغبر إلي أزمة المواصلات وأحوال السكة الحديديـــة المتدهورة تنبهت . أضع يدي علي المائدة ، أحبس لساني فـــي فمي ، أرسم تكشيرة علي وجهي ، كلا لم تكن تكشيرة حتى لا يظن أنني أرفض شيئا ، لأن الرفض يقابله في معظم الأحيان قبول ، مهمتي السماع فقط وليس القبول أو الرفض ، ولحرصي كنت أضع قـــناعا علي وجهي لا يكشف عن حقيقتي غاضبا أو مسرورا ؟ وأنا لي معرفة بلعبة الأقنعة منذ سنوات اشتغالي بالتمثيل .

قـــبل موافقتـــي علـــي مقابلة كمال بك الأغبر بعيدا عن مكتب صـــديقي المحامـــي ، وضـــعت قائمة بالموضوعات التي لا يجوز الخوض فيها : قائمة طويلة مثل قوائم الرقابة علي المصنفات الفنية في مصر ، إذا أشار إلي مصنف منها تنبهت كما يتبنه الرقيب .

لكـــنه فعلهـــا ابن الحرام وخدعني . ألقي بعروضه كلمة كلمة ولـــيس جملة جملة كما تفعل إسرائيل مع الفلسطينيين ، حدثني خلال ســبعة عشـــر يومـــا ، وفي النهاية قدم لي وثيقة مكتوبة ، من شدة

وضوحها كدت أوقع عليها .

فـــي سنوات السبعينات ، وثقت في هذا الرجل وولده الذي كان مجهـــولا فـــي الأوساط العلمية ، دفعت لهما نقدا وبانتظام . تابعت البـــناء بمعرفتـــي وأنا لا أفهم في أمور المعمار . تسلمت عقد شقة واسعة في الطابق الأول ، ظننت أنني أمتلكها ، فرشتها زوجتي علي مزاجها .

مـــرت شهور فقط ، وبدأت كمائن أصحاب العمارة : محاضر فـــي أقســـام الشرطة . شكاوى في النيابات . شجار في بير السلم . مـــتابعات . ملاحقـــات . زعيق . قطع المياه عني . سرقة النور . سرقة خط التليفون .

متاعب ومشاكل سخيفة لا أول لها ولا آخر . القصد ، تصديت لهـــم ، ثـــم تصـــاعدت هجمتهم في شراسة وبلغت ذروتها بالضربة القاضـــية التي تنهي المباراة ، انفجرت بقدرة قادر في شقتي مواسير الصـــرف الصحي للعمارة ، لتفرغ حمولتها من براز ووساخة تحت سريري في غرفة النوم . أي والله .

طـــبعا مسألة البراز هذه لا حل لها ، لا أقسام شرطة تنفع ولا نيابات . الهرب . تركنا الشقة بصفة عاجلة إلي مكان آمن .

زعـــم الســـيد وكيل الوزارة أنه لا يعرف سببا لهذه المصيبة ، وأنـــه ســـوف يحلها في أسرع وقت ، وطلب مني عدم الشكوى من

أجل خاطره ، فالأمر غريب ومشين ، ربما وقع زلزال خفيف في البلد حطم مواسير الصرف ؟

كنت أسأله ، ولماذا شقتي دون شقق العمارة ؟ يقول : لا أعرف؟

غادرت شقتي بمشيئتي ، ووفقا لنصيحته ، مؤقتا ، ولا فائدة بعدها ، دخلت إلي حلبة القضاء من أوسع الأبواب ، مسلحا بالدليل القاطع ، الشقة غارقة في بحر من فضلات البشر وربما الحيوانات أيضا من قطط وكلاب ، طلبت خبراء معاينة ، وخبراء من المجاري، وخبراء صرف صحي من وزارة الإسكان ، وخبراء من وزارة الصحة ، علي أمل أن تنصفني الجهات القضائية ، وتمنحني تعويضا عن خسائري .

لا أستطيع الاقتراب من باب الشقة ، مواسير مياه الصرف الصحي للعمارة تفرغ حمولتها تحت سريري في غرفة النوم ، والعياذ بالله ، ومواسير المياه النظيفة تنز في الصالون ، اختلطت المياه الحلوة بمياه الصرف ، بحر وساخة ، القصد ، ابتعدت عن العمارة والشارع .

تبين فيما بعد أن هذه المصيبة من تدبير عقل شرير ، ونتيجة ألاعيب هندسية ، عمارة حديثة من تسعة طوابق ، بها مصاعد حديثة، ومدخل العمارة بهو فخم يزينه رخام إيطالي ، وشبكة المياه

والصرف الصحي كلها تصب في شقتي في الطابق الأول .

جرجرتهم إلي المحاكم وأقسام البوليس . خسرت راحتي . وكانت البلد غير البلد. الرئيس السادات ملء السمع والبصر، و٩٩% من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة . سافرت زوجتي إلي بلدها، ثم لحقت بها .

وقع ذلك كله في سنوات العمل ، حين يقاس العمر بالشهور والأيام ، وأول أمس نصحني وكيل الوزارة السابق كمال بك الأغبر بالعودة إلي شقتي ، صدقته ، قال في حزن : مات من كان السبب . قلت : رحمه الله .

طلب مني مائة وتسعين ألف جنيه بلا سند . قال : فروق أسعار. أضاف : هذه مطالب الورثة . خمس بنات أخوات المرحوم. أزواجهن وأطفالهن لهم مطالب . هذه قبيلة. قال : زوجات ثلاثة قتلي من أبنائه في رقبته . وهذا عرض سخي . قلت : إسرائيل تحاصر كنيسة المهد . جرائم حرب وقعت في مخيم جنين . سوف أسافر في بعثة تحقيق إلي غزة . قام ولم يشر إلي المائة وتسعين ألف جنيه .

أخبرت المحامي بطلبات الرجل : مائة وتسعون ألف جنيه دفعة واحدة ، قال المحامي : رجل عجيب . ونصحني بعدم مقابلته ثانية ، وفي الحقيقة لم يكن كلامه نصحا بل أمرا ، وشدد علي ذلك ،

المحامي صديق عمر ، قلت : حاضر .

قلت لصديقي المحامي حاضر وعملت بعكس نصيحته ، واستمرت لقاءاتنا ، وظل العجوز يستدرجني للعودة إلي شقتي . يمدحني . يشكرني لقدومي للعزاء . يزعم أنه كان يقرأ ما أكتبه في السنوات الماضية ويأسف لغيابي .

أستمع إليه ونحدد موعدا آخر لشرب القهوة .

في المرة الأخيرة ، قال كمال بك الأغبر في توسل ، رياح الشر قصيرة . ابنه مات . وهو رجل عجوز . وزاد في الشرح ، قال : في العائلة لعنة يتوارثها الأبناء عن الأباء . هم هكذا . لعنة تطاردهم ولا فكاك منها . أحفاده الصغار يتشاجرون . لا أحد منهم يطيق الآخر .

ذكرني حديثه عن اللعنة التي تتوارثها عائلة بن عمران الأغبر بلعنة أكبر ، سألته عن سبب زياراته المتعددة إلي إسرائيل في السابق ، قال في فخر ، وهو يقلد بعض الوزراء : كنا نطبع من أجل مصر .

فرغنا من حديث إسرائيل سريعا ، ذكرني بالعودة إلي شقتي وطالبني بالمائة وتسعين ألف جنية . قال : المرحوم طمع في شقة الطابق الأرضي قبل بنائها ، كان يعد لدراسات معقدة حول ضغط المياه وسعة مواسير الصرف . أجري تجاربه علي شقتي ، ولم

تركتها استولي عليها ، وأضاف كمال بك الأغبر بصراحة أعجبتني فـــي وقتها ، قال ، ابنه حسب حسابات جهنمية أثناء البناء ، لتصب مواسير الصرف الصحي في شقتي . جرب ونجح . ومن يعرف لذة النجاح في هذه الدنيا الفانية لا يفارقه طموحه .

قـــال الـــرجل العجـــوز ذلك كله ولم تطرف له عين ، وأنا من جانبـــي لـــم أعلـــق ، ولـــم أقاطعه ، كأنه يحدثني عن قصة فيلم لا يخصني ، كنت مستمعا فقط، أكمل حديثه عن ابنه ، قال ، المرحوم أقـــام في الشقة معملا صغيرا زوده بعينات من الأجهزة الحديثة التي تستخدم في المستشفيات ، وتباع في الأسواق وتعمل بالطاقة النووية، وطبعا التخلص من النفايات النووية مشكلة .

أضـــاف الـــرجل ، هـــذه هواياتـــه أمـــا عمله الرئيسي فكان الرياضـــيات العليا الفيزيائية وليس التجارب الفيزيائية ، مجال عمله معادلات مجردة ، معمله في الشقة من قبيل الهواية .

هـــززت رأسي ، قلت : نابغة . مسكين . وبعدها سألته : توجد مـــواد نوويـــة فـــي شقتي ؟ قال : توجد أجهزة من التي تستخدم في المستشفيات .

ســـألته : كان يرحمه الله يشتغل بالمسائل الطبية ، مثل الكشف عن جنس الجنين في الرحم ، كشف السرطان المبكر ؟

فكر كمال بك الأغبر ، قال : ربما .

سـألته علي غزة : والنفايات . قال : المواد المشعة محظورة . ولها أماكن دفن . وأنت تعلم . وفي الجامعات قيود .

سـألني كمـال بك الأغبر ، متي أتسلم مفاتيح الشقة ، وأسقط مسألة المائة وتسعين ألف جنيه التي يطلبها نقدا ، قلت : بعد عودتي من غزة .

مـا دام كمال بك الأغبر لم يطالبني بالنقود ولم يشر إليها ، لا ضـرر مـن تسـلمي مفاتـيح الشقة ، وربما أيضا يسلمني مفاتيح مضـروبة ، وكلمة مضروبة وجدتها شائعة في القاهرة هذه الأيام ، وهـي كلمة لها دلالات مختلفة ، سألت الدكتورة سلمى عن ترجمتها ورويـت لهـا الحكاية ، فأفشت سري إلي صديقنا الرسام وصديقنا المحامي وفضحتني .

قالـت لي سلمى بعدها إن صديقنا المحامي غضب بشدة وعلا صوته وزعق ، وصدقتها ، علي الرغم من أنني لم أره غاضبا مرة واحدة في حياتي ، وإذا علا صوته كان ذلك في المحاكم أمام القضاة فقـط ، وقالـت سلمى ، إنه زعق فيها وكأنها مسؤولة عني ، وقال إننـي أفسد القضية بتصرفاتي غير المسئولة ، وأكمل قائلا ، إنه لا يتحمل مسئولية سلامتي بعد الآن .

حادثـته فـي التليفون فأنا لا أحتمل مضايقة أصدقائي فما بالنا بغضـبهم ، لـم يـزعق فـي ، ووجدته لم يكن غاضبا بالقدر الذي

تصورته سلمى ، وقال لي فقط ، إنه سوف ينسحب من القضية .

لم يحدثني المحامي عن شيء يهدد سلامتي ، ولم يزعق ، قال لي فقط وبهدوء إنه سوف ينسحب من القضية وعلي أن أحلها سلميا مع الورثة ، وعرفت لحظتها أنني أغضبته وتضايقت .

أما صديقي الرسام فقد سبني ، وقال لي إنني ألعب بالنار كعادتي . وسلامتي في خطر ، ولقاءاتي بهذا المجرم كلها مصورة : صوت وصورة ؟ والمحاكم في مصر أصبحت تأخذ بالصوت والصورة ، ولا تأخذ بالصوت فقط أو الصورة فقط إلا في حالات إثبات النسب .

وزاد صديقي الرسام وسألني ، هل تبادلنا خطابات ؟ قلت : لا . فأنا كسول ولا أكتب خطابات ، أفضل الحديث في التليفونات واللقاءات المباشرة على كتابة الخطابات ، ولم أغير هذه العادة القبيحة أثناء إقامتي في جنيف طوال هذه العقود . قال هذا أفضل ، لأنني لو كتبت له خطابات من سويسرا أو من الفندق كان ذلك إقرارا بالتنازل عن الشقة .

ولم أفهم علاقة الخطابات بالتنازل عن الشقة . طاوعته وقلت : طبعا . الخطابات دليل تنازل عن الشقة .

يا سادة يا كرام كمال بك القاسي بن عمران الأغبر رجل ميت. مات لحظة شنق ابنه نفسه في شقتي . مات حضرة وكيل الوزارة

السـابق لحظــة نشرت صور ابنه معلقا في حبل . طاوعتهم بلساني فقط لأنهم أصدقائي ، ولم اقتنع بتخوفاتهم .

طبعا هم يعرفون مصلحتي ، ومن المنطقي أن ينصحوني ، أما أنا فكنت طوال الوقت مشغولا بالجانب المرح من المسألة ، الجانب البعــيد عن حسابات الربح والخسارة : كمال بك القاسي بن عمران الأغــبر لقطــة ، وشــغلتني مسألة الحديث إلي رجل ميت أكثر من مصلحتي .

نشرب قهوة ، نقرأ صفحات الوفيات ، نتحدث في الكرة ، وهذه متعة .

ربمـــا ســلمى تفهمني ، وتثمن حديثي إلي رجل ميت ، بسبب تخصصــــها الأدبـــي الرفيع . الحديث إلي ميت فيه متعة عقلية تفوق المصـــالح المادية قصيرة النظر ، هل حادث أحدكم رجلا ميتا ؟ أنا فعلتها ، وفي كل مرة تسألني سلمى عن صديقي الميت وتضحك .

قدمت من جنيف لمقابلة ميت ، وللشماتة في ميت آخر . وكنت . أتفهـــم مخاوف الرجل الميت وأتفرج عليه وهو يكذب . الفرجة علي ميت يكذب متعة ، يحدثني ، أدقق في كلماته وقناعي فوق وجهي ، أراه يلهــث ، يقول خائفا ، اللعنة تطارد العائلة ، تهتز يده ، يصفر وجهـــه ، يقول : ابني قتلته معادلة رياضية مجردة ، فشل في حلها انتحر ، يترحم عليه ، ولا يقول ابني كان مجرما ، يعرف في قرارة

نفسه أن ابنه من عتاة المجرمين ويكذب .

بمرور الوقت تعودت علي الحديث إلي الرجل العجوز الميت ، تخليـت عـن السماع وبدأت في توجيه الأسئلة ، سألته عن طبيعة الأجهـزة التي كدسها ابنه في شقتي ، وهل هي عينات لأجهزة طبية متقدمة في الأسواق ؟

قـال ، إنه يظن أن ابنه كان يجري تجاربه من قبيل الهواية . ومـن بيـنها أجهـزة أشعة وسونار وكشف علي السرطان وأجهزة أخـرى مـن بينها جهاز اسمه الكشف عن كربون ١٤ ، لا يعرف الفائدة منه ، وعجز عن تفهم وظيفته .

جهاز كربون ١٤ ؟

ابـن الحـرام ، شـتمته في سري ، لأنه لا يجوز سب الميت بصـوت عـال في حضرة والده . أخفيت عن العجوز معرفتي بهذا الجهـاز نظريا علي الأقل ، سألته عن شقتي قبل استلام مفاتيحها ، هـذا مـن حقي ، قال الرجل الذي كنت أظنه ميتا ، واتضح لي من إجابـته أنـه لـيس ميتا : غرفة النوم والمطبخ وغرفة الطعام علي حالها، جدران الصالون محاطة بألواح صلب سميك جدا ، وفي ركن مـنها معمل صغير . الأجهزة مركونة في غرفة المعيشة مغلفة كما هي . .

يبيعنـي ابن الحرام معملا ، جدرانه مغلفة بألواح صلب سميك

جـدا اسـتعدادا لتفجير نووي ، أو علي الأقل مخزنا لأدوات طبية تعمل بمواد مشعة ، وأنا رجل لا علاقة له بالطب ، سألته عن النيابة العامـة ، وموقف الجهات المسئولة ، قال : لا موانع . هذه الأجهزة تباع في المزاد ومن حق الورثة .. .

سـألته عـن تسـرب الأشعة ، قال : لا يوجد تسرب . وهذه الأجهـزة كلها لم تكن تعمل إلا في نطاق ضيق ، كان ابني حريصا علي سلامته ؟

ابتسمت . لم أصدقه . كيف يحرص ابنه علي سلامته أو سلامة الشقة والعمارة ويقدم علي الانتحار ؟ هذا رجل كان يعد العدة لتفجير الشقة ، وليس الانتحار فقط .

لم أقل لكمال بك الأغبر إن جهاز كربون ١٤ يستخدم في تحديد عمـر الآثـار القديمة بخطأ لا يزيد عن مائتي سنة . وتم استخدامه لأول مـرة عـام ١٩٤٨ وكـان هذا الجهاز فتحا في دراسة آثار عصور ما قبل التاريخ .

أخفيـت عن كمال بك الأغبر معلوماتي عن قصد ، فالمرحوم كان مهرب آثار .

زادت مخاوفي وفي نفس الوقت زاد فضولي . ولم أقل لصديقي المحامـي إني أحب الفرجة ، ولم أخبر صديقي الرسام بما سمعته ، خجلـت مـنهما . الدكتورة سلمى تفهم في الأدب والفن والأساطير

وسوف ترشدني إلي أصل الحكاية .

طلبت رأي سلمى في المسألة برمتها ، لم تصدني عن مقابلة الرجل العجوز ، ولم تشجعني علي العودة إلي شقتي القديمة .

كما أنني كنت في نفس الوقت أعتقد أن الرجل العجوز يكذب ، ولن يسلمني مفاتيح الشقة ، وقد اختلق قصة المعمل النووي ليخيفني وأعرض عليه التنازل عن الشقة ، وهل يوجد عاقل يقبل السكني في شقة ملوثة بنفايات ذرية وإشعاعات ؟

قلت له : لن أتنازل عن الشقة ، ولن أتسلمها قبل التفتيش عليها بواسطة الجهات المسؤولة ، وإزالة التعديات : جدران الصلب السميكة . النفايات . صنابير المياه التي وضعت في غرفة المعيشة ، أنا أود شقة للمعيشة وليس عيادة لفحص أرحام النساء . قال إنه يوافقني ، وإذا أردت التنازل عن الشقة سدد لي ثمنها نقدا ومصاريف المحاماة .

طالبته بفروق الأسعار ، قال : هذا ليس في صالحي إذا حسبتها بالورقة والقلم ، بسبب الركود في سوق العقارات حاليا بسبب الحرب. كان يكذب، ولم أحسبها بالورقة والقلم ، وأراحني بعدها من الحديث ، واكتفى بشرب القهوة معي ، ولم يسلمني مفاتيح الشقة .

١٢

- الدنيا عنبر ولادة -

بدت اللوحة شبه مكتملة وبرزت سلمى في منتصفها ، وصديقي الرسـام يـردد أنـه ينوي الفراغ منها قبل سفري ، وفي حاجة إلي أسبوعين أو ثلاثة .

كثفـت الدكتورة سلمى من تواجدها في المرسم ، وليل القاهرة فـي هـذا الوقـت من العام جميل ويشد الناس إلي السهر والحديث والرسم ، وكنت أعمل طوال النهار علي أوراقي وأنهي مهاما عاجلة تنتظرنـي ، وألحـق بهما بعد الظهر ، وأعتبر تواجدي في المرسم ضمن ساعات راحتي من العمل .

ورغـم دأب الرسام وعمله لساعات علي اللوحة ، كنت أراها ناقصة ، وأعتقد أنه لن يكملها قبـل سفري بسبب الظروف الحالية .

رأيـت بدايـة الرسـم وأود رؤية الولادة الحقيقة ، فالساعات

الأخـــيرة هي أعظم اللحظات ، حين يحط الجمال علي اللوحة مـــع آخــــــر ضربة للفرشاة ، ويكتمل الخلق ، وتكتسب اللوحة وجودها بعيدا عن الرسام .

وبسبب خوفي من عدم مشاهدة اكتمال اللوحة ، طلبت من واحد مـــن أصحابي القدامى الخطاطين ، في المدينة القديمة كتـــابة لوحة كبيرة متر في متر بأجمل خط في الوجود : "" الدنيا عنبر ولادة . ""

ســـألته لوحة تليق بالفنان الكبير اسحق ، قال : هو عمنا . وبدأ العمل .

أذهـــب إلــــي ســـيدنا الحسين أدور علي المقاهي ، وأطل علي صـــديقي الخطاط مرتين ، مرة عنـــــد وصولي وقبل شرب الشاي الأخضـــر ، ومـــرة قـــبل مغادرة المنطقة بعد شرب الشاي وتدخين الشيشـــة ، أرقبه وهـــو يكتب ، الخط الجميل متعة للعين ، وصدق الرجل معي ، ترك لوحـــات شقة للإيجار وعيادات الأطباء ومكاتب المحامين وانتهى من اللوحة في يومين : الدنيا عنبر ولادة .

حملـــت اللوحـــة وصعدت سلالم حتى الطابق الخامس ، رأي الرسام اللوحة في يدي ، ضحك . قال : خط جميل .

أمـــام بــــاب العنـــبر أنتظر ولادة أميرتي بعـــد اكتمال مسار الإضاءة الداخلية . شعاع خفي يسطع داخل اللوحة في منتصفها من نظـــرة العيـــن والسنة اليسرى إلي القدم ، وهي جالسة في شموخ .

أتوقف عند النور البازغ وأسرح .

قد يحدث وأتكلم مع صورة فقيد ، وما أكثرهم وقد طال العمر، أسرح . أسمع . أرد . وهل أنسى رفاقا لي ماتوا ؟ يحيي الطاهر عبد الله . أمل دنقل . نجيب سرور . عبد الحكيم قاسم . هؤلاء هم رفاق دربي . أضع صورهم في عمق مكتبي ولا أعلقها على الحيطان أمام الأغراب ، واستمع إليهم في ساعات الشدة وفي ساعات الصفو .

على الحيطان أعلق صور موديلات رينوار ومانيه وسلفادور دالي ، لتضيء صورهن عتمة أيامي ، لكنني لا أحادثهن ، وإذا تكلمن لا أرد عليهن ، فجمالهن أكبر من الكلمات ، أتركهن في حالهن ، أرقبهن بالعين فقط ، أما رفاقي الراحلون فأسمع أصواتهم .

كل يوم يزيد تعلقي بالدكتورة سلمى أكثر من تعلقي باللوحة طبعا ، شابة مليحة . رزينة . عاقلة . متعلمة . فاهمة . من يجدها في هذا الزمان ؟ اعتبرت نفسي محظوظا .

فلسفت المسألة، رأيت مصائبي أهون من مصائب البلد . فكمال بك القاسي المحمودي الشندويلي ابن عمران الأغبر من نتاج النكسة، والجرائم الإسرائيلية الحالية من نتاج النكسة ، استرحت لهذا الرأي ، ورأيت معاملة كمال بك القاسي مثل شارون . لا يصح مقابلته ولا يصح شرب فنجان قهوة معه . والحقيقة أن كمال بك القاسي لا يشبه

شـــارون ، فهـــو رجـــل ممصوص ورفيع مثل عود القصب ، أما شارون فله كرش كبير .

تعرفـــت علـــي الدكتورة سلمى مرجان صدفة ، وتمسكت بها ، وتركتها تنفذ من بابي ثم شددتها إلي بحوري ، وأغرقتها معي فـــي أضـــابير قضـــايا ومشاكل أزلية مع كمال بك الأغبر وولده المنتحر المهندس فؤاد وشبكة العنكبوت وموت الأسطورة .

لســت وحدي هذه الأيام التعيسة ، الدكتورة سلمى مرجان معي وكذلك لوحتها . اثنتان : الأصل واللوحة .

وأنـــا كثـــيرا مـــا خسرت جواهري بسبب قلة العقل وعدم فهم النساء . خسرت ساندرا البنت الجميلة الكرواتية الرائعة بسبب تعلقي بصورة الملكة تي . توقفت عند الشبه بينهما في ملامح الوجه وقصة الشعر فخسرت ساندرا وضاعت مني . كنا في جنيف والعالم تشغله الحـــرب في يوغسلافيا السابقة ، تعلقت بهـــا وخسرتها . وهـــذه المرة أتعلق بسلمى ولوحتها ، يا للمصيبة ؟

تنبهت فـــي الوقت المناسب .

هـــل أخســـر سلمى بسبب لوحة . كلا. توقفت عن تأمل اللوحة وأعطيـــتها ظهـــري . استرحت . هذه ليست الدكتورة سلمى ، وإذا ســـألني الرســـام عـــن اللوحة ؟ قلت له كما قال بيكاسو ذات مرة لماتيس : هذه صورة الدكتورة سلمى وليست الدكتورة سلمى .

ألقي نظرة سريعة علي اللوحة من جلستي قرب نهاية الصالة ، لا أتدخل ولا أنطق ساعة الرسم ، وبعد فراغ الفنان من عمله لا أعلق ، تشغلني الأوضاع الحالية في الشرق الأوسط أكثر من الفن ، ونتكلم في السياسة بدلاً من أمور اللوحة .

" الدنيا عنبر ولادة " نترك المرسم ونتجول في المدينة القديمة التي لا تهدأ ونتكلم في السياسة . ويكون الجو مائلا إلي البرودة قليلا، وبعد العشاء تأخذني سلمى معها إلي البيت . أجدها متعبة من العمل في الجامعة ، ومن الجلوس أمام الفنان ، ومن حديث السياسة، وتصف جلوسها أمام الرسام ، بأنه تجربة صعبة للغاية .

في شقتها الجميلة ، تؤكد سلمى ، أنها لن تجلس أمام رسام مرة ثانية . بعدها تضيف : مع كل لمسة فرشاة يصيبها قلق ، كيف يرسمها ؟ بينما لمسات الفرشاة تظهر فتافيت وجزئيات منفصلة .

بسبب هذا القلق تأخذني الدكتورة سلمى معها إلي البيت بعد الرسم ، أتفهم مخاوفها من رسم اللوحة وأخفف عنها ولا أصدقها ، فقلقها ليس حقيقيا . أرقب قوامها الفارع . يأسرني حضورها . أسأل نفسي ، هل يقبض الرسام علي هذا الحضور الآسر أم يتوقف عند تفاصيل الجسد ؟

سألتني : أين سرحت ؟

رويت لها شيئا عن تقلبات صاحب العمارة ورغبته في نهبي ،

وكنــت قد توقفت عن طرح مشاكلي أمام صديقنا الرسام بعد تعليق لوحة "" الدنيا عنبر ولادة "" ، وسألتها عن مفهوم اللعنة التي تصيب بعــض البشر كالقدر المحتوم ، قالت في صوت رزين : فكرة القدر قتلها الإغريق بحثا ومن بعدهم المعتزلة .

أعــرف بعضـــا ممـــا قالـــته وتركـــتها تتكلم . حدثتني سلمى وبالتفصـــيل عـــن مفهوم عمنا نجيب محفوظ للقدر ، والفرق بينـــه وبين الكتاب الإغريق ، شرحت لـــي مأساة أوديب ملكا لسوفوكليس، ووضعتها في إطار فلسفي .

صاحبنا كمال بك بن عمران الأغبر ، العمي من نصيبه بسبب المعمـــل الذي أقامه ابنه في شقتي ، وليس بسبب زواجه من أمه كما فعل أوديب ، فالرجل العجوز أمه ماتت في القرن الماضي .

رأيـــت كمـــال بك الأغـــبر يسير في الطريق وهو يستند إلـــي صـــبي يجـــــره ، ضحكت ، والمسألة لا تضحك ، وتابعت سلمى حديـــثها ولـــم تضحك ، بينما الأمر لـــم يكن يستحق الشرح وهـــي متعـــبة ، فالمســـائل واضـــحة ، كمال بك الأغبر عيناه موجوعتان ونصيبه العمي .

ســـألتني ســـلمى عمـــا فعلت بملابسها ؟ قلت : تشغلني طوال نهـــاري أوراق القضية ، لهذا لـــم أعد نفسي للحفل .

ســـألتني في براءة طفلـــة صغيرة تحبو : أيـــة قضية ؟ نظرت

إليهـا فـي غضب ، قلت : مسألة جرائم الحرب .

طبعا بسبب كثـرة مشاكلي وتعدد قضاياي ، نسيت الدكتورة سلمـى أهـم ما يشغلني . قضايـاي كثيرة وتتوالد كالدود ، كمال بك الأغبر وحده قضية ، انتحار ابنه في غرفة نومي قضية ، تحول شـقتي إلي معمل نووي قضية . النفايات قضية . إقامة عيادة سرية لفحص أرحام السيدات قضية . تحديد عمر الآثار وتهريبها قضية . الأجهـزة المشعة قضية . سداد مائة وتسعون ألف جنيه نقـدا لورثة العمـارة قضـية . قضـاياي تمـلأ مجمـع محاكم . نسيت البنت جرائـم الحرب ، وخلطت بين الغث والثمين .

قضـايا تشتت العقـل والبال ، وكـل القضايا في كفة ومسألة فحـص أرحـام السـيدات فـي شقتي في كفة . ابن الكلب . هذه ليسـت عيشـة . تهت . صرت ألبس البلوفر فوق الجاكيت ، أضع فردة شراب ملونة في قدم وأخرى سادة في قدم .

طـار عقلـي والتهبـت البروسـتاتا واتسع الفتق وداهمتني البواسـير ، والشـاهد ، مـا ذنب المسكينة ، أحمد الله أنني لا زلت أرتـدي الأحذية قبل مغادرة الفندق ، ولا أدور في الطرقات بشبشب الحمام . نظرت إلي قدمي ، تأكدت من وجود الحذاء .

كـل هذه المصائب من فعل كمال بك الأغبر وولده . نسيت مسـألة طيرانها ولـم تعد تشغلني بعد ترددها علي المرسم ، امرأة

قبلــت الجلوس أمـــام فنان لساعات طويلة لن تطير من نافذة ولـــن تقــود طائـــرة شـــراعية أو غير شراعية . كما أنني كنت قد نسيت ملابسها في حقيبة قديمة في الفندق .

نظـــرت إلي الدكتورة سلمى مرجان وأنا أجلس علي الأريكة ، وكأنهـــا ترسمني هي الأخرى ، ونصحتني بوضع ملابس ثقيلة حول نصفي التحتاني في الليل ، قالت : الدنيا برد ، وهـــذا أفضل .

تذكرنــــي بفعلتي الحمقاء وتنصحني في ود : ملابس ثقيلة حول نصـــفي التحتاني ، تخاف علي مـــن البرد أم تخاف من تبولي علي الأريكة مرة ثانية ؟

فـــي كل الأحوال سلمى معهـــا حق ، بحثت عن البقعة الكبيرة التــــي بللت الأريكة أول أمس ، وجدتهـــا قد اختفت ، حلمت ببحـــر الإسكندرية الواسع ورأيت شبكة العنكبوت الهائلة ، ضحكت . قناديل البحر تفترس العنكبوت وتقرض شباكه ، فما بالنا بتنين ، ضحكت ، خذلتني البروستاتا اللعينة .

ربمـــا أنزل عدة قطرات في قطار قبل وصولي إلـــي الحمام ، ولكن أن يصل بي المرض إلي فعلها علي الأريكة ... غير معقول ؟ حديثها عن الملابس الثقيلة هبط بي إلي أسفل السافلين .

ســـألتني ســـلمى : ما رأيـــك فـــي مدينة الفيوم ؟ بيت بحديقة واســـعة علي البحيرة ، نقيم حفلا وثنيا نقتل فيـــه القمـــر . قالـــت

ذلك وضحكت ، أعجبتني ضحكتها أكثر من قولها نقتل القمر .

لا أود قتل القمر .

أنـــا رجل تؤلمـــه البروستاتا والبواسير ، ويكفيه التخلص مـــن مخاوفـــه . خلاص الإنسان تحت جلده وليس في جعبة الذين يدعون الحكمـــة . تعقـــد مؤتمـــرات للشواذ فـــي العالم الذي يوصف بأنه متحضـــر ، ولا أحـــــد يعـــترض ، وحرق مشد صـــدر وسروال وبلـــوزة لعبة بسيطة .

ســـلمى تحـــترم مخاوفـــي ولا تصـــدقها ، وكنت طوال الوقت أعــــرف ذلـــك ولا يضـــايقني عـــدم تصديقها ، يهمني أنها تدللني وتطاوعني وتأخذني علي قد عقلي ، اشتريت لها بالونات لتلعب بها في المقهى المحترم الذي يقدم القهوة الكابتشينو ، لعبت بها . منحتها عشر بالونات منحتني مشد الصدر والسروال والبلوزة . امرأة تعشق الطيران ، هي حرة ، فقط أحرق ملابسها .

أنا أيضا أسير علي هواها ، وأتفهم تقلبات مزاجها ، أتقبل منها فـــي الليل ما ترفضه في الصباح . طلبت مني نزول حمام السباحة فـــي هليوبوليس فـــي شهر إبريل نزلت وسبحت إلي جوارها مترين وقطع نفسي .

تطلـــب ســـلمى مني زيارة المقابر ليلا ، والجلوس فـــي مقهى هناك ، لتستعيد نشاطها وحيويتها بعد جلستها أمام اللوحة ، أصحبها

عن طيب خاطر ، ربما من أجل فاطمة التي تتردد علي هذه المقهى بعـــض الليالـــي ، وفاطمة تشبه ساندرا الكرواتية في جمالها وطول قامـــتها ، الفـــرق بيـــنهما أن فاطمة تترك شعرها علـــي كتفيها ولا تقصه مثل الملكة تي .

شممت رائحة القبور من أجل سلمى وفاطمة ، سمعت خرافات، أصـــغيت لهـــا وهي تضرب الودع . وحكت لي عن عالم النشالين وطـــرق النشـــل ولغـــتهم ، وبعد ضرب الودع وحديث النشل ، لا ترحمنـــي الدكـــتورة سلمى مرجان وتسحبني معها إلي ندوة شعرية فـــي قارب في النيل ، لسماع شعراء جدد . يا للمصيبة ، عشرون قصيدة حديثة آلمتني أكثر من حديث النشل .

عملـــت ذلـــك كلـــه وأكثر منه ، وترفض سلمى ترجمة قصيدة صديقي الشاعر ، وزادت وطلبت مني أن أقول له ، من يترجم هذه القصيدة ينتحر ، قمت بمـــا طلبته سلمى مني في غباوة وقلـــة ذوق، وقلت له من غيظي : من يترجم هذه القصيدة ينتحر .

أضافت إلـــي قصيدة الرجل بيتين ، تقبلتهما وامتدحتهما ، وهذا لا يجـــوز ، فهـــذه القصـــيدة ليست قصيدتها . لهذا يغيظني رفضها ترجمة قصيدة : المرأة الجميلة .

طـــوال ساعات دراستنا للقصيدة ، لم تقدم الدكتورة سلمى سببا معقـــولا لمخاوفها من الترجمة ، وهي الناقدة المعروفة العاقلة التي

تمــارس الــنقد بالفرنســية والعربية ، وسامحتها ، الناقــد البنيوي الحديــث لا يقــوم بتفسير أو شروح ، يكتفي بالتفكيك وإعادة البناء كســباك أو عــامل في صناعة المعمار ، ضحكت ، قلت : لو كانت نــاقدة ماركسية لترجمتها علي الفور ، أنا مثلا لا أخاف من ترجمة قصــيدة المــرأة الجمــيلة ، المشكلة فقط تتركز في أنني لا أعرف الفرنســية ، وإذا سألني أحد في جنيف هل أتحدث الفرنسية ، أقــول لــه ، نعــم ، وأتابع حديثي معــه باللغة الإنجليزية التي يعرفها كل الناس في جنيف أو الألمانية التــي يعرفها بعض الناس .

نســيت سلمى مسألة ملابسي التحتية وسألتني : متي نذهب إلي الفيوم ؟ قلت مطيبا خاطرها مثل عواجيز الفرح : لسنا في عجلة .

نســيت البنت أهم قضية تشغلني ، واهتمت بملابسي التحتية ، ملابــس نصــفي التحتاني . قضية جرائم الحرب يا عالم ، أهم من تبولي علي الأريكة ، وقد وصلتني مجموعة تقارير مرعبة من المدن والقرى الفلسطينية ، تؤكد ما تبثه شاشات التلفزيون .

في الأول جاءني تليفون من صديق ، ثم وصلتني التقارير علي غرفتــي بالفــندق وتســلمتها بنفسي ، قبل نزولي لمقابلة كمال بك الأغبر . أعمال قتل وخطف وهدم منازل ومصادرة أراض . الحصار شديد علي رام الله .

قــرأت التقارير قبل مقابلة كمال بــك الأغبر ، وطبعا لم أحدثه

عـنها ، واكتفيـت بـالقول بأنني لا أمتلك مائة وتسعين ألف جنيه لسدادها لورثة العمارة كفروق أسعار . شربت معه فنجان قهوة واحد وقلت له : سامحني عندي وعكـة .

تخلصـت مـن كمال بك الأغبر ، وصعدت إلي غرفتي للعمل دون إثارة شكوكه ، فأنا رجـل عندي وعكة ، وإذا سألني شيئا عن طبـيعة الوعكـة التي أصابتني فجأة لأول مرة، تبولت عليه ، وقلت لـه شيئا بعدها عن متاعب البروستاتا .

أنا لا يخجلني التبول علي كمال بك الأغبر ، ورشه بالبول في أي موضع من جسده ، ويا حبذا لـو تبولت علي رأسه ، فبراز أهل منزله وسخامهم سبق وحط تحت سريري .

ترجمـت بعض التقارير إلي الإنجليزية ، وكتبت ملخصا لها ، وعجـزت عـن ترجمة بعضها الآخر بسبب بشاعته . وقمت بهذه المهمـة في الصباح ، بعد تخلصي من كمال بـك الأغبر ، فشربت كأس النكد ثلاث مرات : مرة بسبب حديث كمال بك الأغبر ، ومرة بسبب ترجمة التقارير . ومرة بسبب عدم تبولي علي رأس كمال بك الأغبر .

الدكتورة سلمى أستاذة وتشتغل بالتعليم ، ولا تمتلك ماكينة فاكس فـي البيـت ، بينما كمال بك الأغبر يمتلك ستة أجهزة مرة واحدة ، وقـال لي ذلك بنفسه . يشجعني الرجل علي التواصل معه بالفاكس

عبر ستة أجهزة فاكس .

سـلمى تمـتلك راديــو وتلـيفزيونا بـالدش وجهاز كاسيت وكمبـيوترا وثلاجـة كبـيرة وأجهـزة تكييف ومكنسة وخلاطا كهربائيا ولا تمتلك ماكينة فاكس ، وهذه مصيبة في العصر الحديث، لأن البريد الإلكتروني لا يعوض عن مزايا الفاكس .

في المرة القادمة في الثاني عشر من إبريل ، أشتري لها ماكينة فـاكس ، أقـول : هديـة عيد الميلاد ، كلا ، أقول هدية الطلاق ؟ احـترت . هي لن ترفض الفاكس طبعا في عيد ميلادها أو طلاقها . عندها تليفون ، تركب الفاكس ، وأستخدمه أنا ولا تمانع إذا قلت لها: من أجل .

ليتنـي اشـتريت لهـا هذه المرة جهاز فاكس حديثا بدلا مـن العباءة المغربية ؟ وتضايقت لشراء العباءة التـي تظهر في الصورة قاتمـة وحزيـنة . الفاكس أكثر تحضرا مـن العباءة . المشكلة أن الحكايـة ليست لعبـة مثل البالونة الخضراء ، الفاكس مسئولية ، وربما خافت إذا رأت التقارير .

حقيبتـي الورقية التي أدور بها طوال النهار في المدينة تهرأت أطـرافها وأصبحت عرة . وضايقتني اليوم وأنا أحمل اللوحـة متر فـي مـتر التـي كتب عليها " الدنيا عنبر ولادة " ، من غيظي من شـكلها ، تركتها مرمية علي الأرض إلي جوار الأريكة وبها بعض

التقارير المفزعة .

جلست علي الأريكة وبدت لي البقعة واضحة . بقعة دائرية واسعة تبدل لون قطيفتها وأصبح أقل لمعانا كالبدلة الرجالي بعد التنظيف .

لون القطيفة من لون بدلتي التي عمرها عشرون عاما ، تناولت مقصا من حقيبتي الورقية ، وقصصت قطعة قماش من الجاكيت الذي أرتديه علي قد البقعة التي تبدل لونها ، غطيت البقعة بالقماش . رأتني سلمى وقد خلعت الجاكيت ، قالت : البس الجاكيت يا نبيل الدنيا برد . أعدت المقص إلي الحقيبة ، ووضعت بقايا الجاكيت أمامي علي المائدة وقد سقط الكم . سألتني سلمى عما أفعل ؟ قلت لها : غدا أشتري بدلة جديدة .

١٣

- يا جبل . . -

قناديل البحر والتنين وشبكة العنكبوت .

طلب مني ناشر أول أمس مجموعة مقالاتي عن جرائم الحرب والإبادة في البوسنة والهرسك ، ترددت في مسألة نشر كتاب عن حرب البوسنة التي انقضت بشرها وفظائعها ، وحدثته عن لقاءاتي ومعرفتي بالمسلمين والصرب والكروات في يوغسلافيا السابقة والوسيط الدولي لورد أوين ، بعيدا عن أعمال الحرب والقتل ، وافق الناشر ، قال : فكرة جيدة .

ساندرا الكرواتية أو الملكة تي فتنتها أهم من أحداث القتل ، وبعد حديثي عن ساندرا ، أروى تفاصيل عن العلاقات بين الصرب والكروات والمسلمين ، وقد رأيتهم يتنازلون عن كراهيتهم ويتحاورون في ممرات الأمم المتحدة وفي المطعم وفي الكافتيريا .

غداء لورد أوين الوسيط الدولي تفاحة وقطعة جبن صغيرة دون خبز وبعدها القهوة . تعلق عزت بيجوفيتش زعيم المسلمين بالسلام. لؤم زعيم صرب البوسنة رادوفان كاراديتش المحلل

النفسي. بوبان زعيم كروات البوسنة النحيف . عشق حارس سلاجيتش وزير خارجية المسلمين للجمال وحبه للفن . سلوبودان ميلوسيفيتش الزعيم القومي ليوغسلافيا الذي خانه التاريخ وتنكرت له الجغرافيا فعاد إلي إثنية بغيضة تحلل القتل والتنظيف العرقي .

أثناء شرب قهوتي مع كمال بك الأغبر ، بعد إرسال الفاكسات ، جاءتني مكالمتان من جنيف علي المحمول ، واحدة من مراسل صحيفة ألمانية صديق ، والأخرى من صهيوني محترف لا علاقة لي به ، كلاهما يسألاني عن الوضع في الشرق الأوسط ومقالة في جريدة الأهرام لكاتب معروف ، ومسلسل في التلفزيون لم أسمع به بسبب انشغالي بالقضية الفلسطينية التي تحولت إلي سلخانة هي الأخرى ، وزاد الصهيوني وسألني عن دراسة حديثة لي عن شبكة العنكبوت وموت الأسطورة ، ولماذا القول بأن اليهود والفلسطينيين وجهان لعملة واحدة وأن الفلسطينيين سوف يحررون اليهود من الخوف ، ولماذا نشرتها هذه الأيام ؟ قلت له من القاهرة وأنا أبتسم، هذا هو الوقت المناسب .

بعدها سألني حاييم الصهيوني : سمعت بجريمة القرن ؟ عملية إرهابية راح ضحيتها أطفال ونساء إسرائيليون في تل أبيب .

رأيت بعض مشاهد تلك العملية الفدائية ، فمثل هذه العمليات لا يتأخر ظهورها في أجهزة الإعلام العالمية ، سألته عن الفاعل ، قال : صبية فلسطينية .

سألته عن مصيرها ، قال : ماتت في العملية . قلت : مسكينة .

الجنود الإسرائيليون يقتلون ويدمرون المنازل ولا يموتون .

تمتم وزمجر الصهيوني الأمريكي ، حدثته عن شبكة العنكبوت والبحر ، وذكرته بمصير سلوبودان ميلوسيفيتش الذي يحاكم حاليا في لاهاى بجرائم الحرب ، ورادوفان كاراديتش الهارب من العدالة بتغطية أمريكية . استمر في الغمغمة ثم قطع الخط .

تقارير المستشفيات الواردة من الأراضي المحتلة فظيعة ، قصف مدن وقرى فلسطينية بصواريخ . عمليات قتل وترحيل . هذه سلخانات . وكما خافت الدكتورة سلمى من ترجمة قصيدة صديقي : المرأة الجميلة ، ووضعت لها خاتمة كابوسية ، توقفت عن الترجمة وبدأت في دراسة عن ما بعد اتفاقيات جنيف كرد فعل لما يدور هذه الأيام ، وكيفية تشكيل محكمة جرائم حرب لشارون ؟

اغلق حاييم الصهيوني التليفون ، عندما قلت له : الجنود الإسرائيليون يقتلون ولا يموتون .

منذ ربع قرن أرفض الحديث معه ولا أصدق دعاوى السلام الأمريكي الوهمي ، ويلاحقني بوضع أوراق مسمومة علي مكتبي ، يعرف أنني لا أقرأها ولا يكف عن تزويدي بها ليغيظني ، وإذا سعى إلي مخاطبتي، تخطيته ؛ وقلت : الأوراق لم تشر إلي ترسانة إسرائيل النووية ؟

حاييم أمريكي الجنسية ولا يحمل الجنسية الإسرائيلية ويفخر

بصهيونيته . رجل نحيف طويل القامة ، سريع الحركة ، لا يكل ولا يتعب من إلقاء البيانات وتوزيع الأوراق في جنيف طوال النهار .

هذه المرة تجاسر حاييم وخاطبني في القاهرة في إجازتي ، ابن الكلب . تعرضت لعدوان ، كان من الواجب سبه أو علي الأقل عدم أخذ المكالمة ، أسمع صوته وهو يقول حاييم ، أضع السماعة ، هذا هو الحل الأمثل .

في المرات القادمة أرد بكلمة واحدة. يقول : حاييم . أقول : طظ ، وأضع السماعة .

أعجبتني كلمة طظ في هذا السياق . أقولها بالعربية ويطلب حاييم ترجمتها من معهد للترجمة في القاهرة يترجم له المقالات والتعليقات والأخبار . بعدها يقول لي في جنيف وهو يلاحقني : كلمة طظ غير لائقة .

لا شأن لنا به ، من لا يعرف كلمة طظ لا يعرف الشرق الأوسط .

في مثل هذه الساعة يسير حاييم في مبني الأمم المتحدة في جنيف من طابق إلي آخر ، وقد شغلته كلمة : طظ، ربما أكثر من قولي العساكر الإسرائيليون يقتلون ولا يموتون .

صديقي الرسام تربطه علاقات واسعة بفصائل فلسطينية معادية لياسر عرفات ، وأعرف ذلك منذ زمن طويل ولا أناقشه ، قلت :

تعبت من الترجمة ، كما أنني أقيم في فندق ، وتشغلني حاليا مسألة شقتي ، وكتابة بحث ...

هز رأسه ولم يعلق . بعدها ، قال : معك حق .

قال صديقنا الفلسطيني بسام الذي حضر فجأة ، وربما كان على موعد مع الرسام من قبل ، لا شيء يغيظ الصهاينة هذه الأيام قدر الحديث عن الصهيونية كأسطورة خرافية دعمتها الصهيونية السياسية بالقنابل النووية .

الدكتورة سلمى طوال حديثنا تجلس أمام الرسام صامتة ، حدثتهم عن حاييم ، هذا الصهيوني الذي يعمل ليل نهار في شبكة عالمية لبث بيانات واستقبال معلومات .

رويت لهم شيئا عما يوزعه هذا الصهيوني من بيانات ، ضحكت سلمى ، وسمعني الصديق الفلسطيني الذي يسخر دوما من ياسر عرفات ويطالب بإصلاحات في السلطة الفلسطينية في اهتمام شديد ، وراح صديقي الرسام في موجة غضب لا أول لها ولا آخر .

في البداية كان صديقي الرسام يرقبني من تحت النظارة ، وفجأة أصابته رعشة . عيناه اللتان فيهما حمرة شديدة بسبب المرارة ، زاد احمرارهما من شدة الغضب . الفرشاة تهتز في يده وينتفض ، قال :

ـ هي الحكاية هزار . هذه حرب وأنت تمزح مع صديقك

الصهيوني . أين الترجمة يا أستاذ ؟ عشرة أيام تكفي لترجمة موسوعة . سهر . لعب طاولة . حشيش . وأخيرا كلمة طظ .

أوجعني قوله .

خلعت الدكتورة سلمى العباءة وابتعدت عن اللوحة . عيناها غمرتهما دموع . فتحت دولابا مغلقا في الصالة بمفتاح صغير أخرجته من حقيبتها ، تناولت مجموعة أوراق مثل التي تصلني ، ثم أغلقت الدولاب وأعادت المفتاح إلي حقيبتها ، ودموعها تنهمر وتكسر قلبي .

تناولت سلمى مجموعة تقارير وبدأت في الترجمة . جسدها ينتفض وتمسح عينيها ، تسجل شيئا وتبكي . دموعها تسقط وهي تترجم . ولا أعرف تترجم أم تبكي . صديقنا الفلسطيني الذي تمكن من تهريب هذه التقارير كان طوال الوقت صامتا .

رفع الفنان اللوحة ونحى الحامل جانبا . سند اللوحة علي الحائط في مواجهة الشمس الساقطة من النافذة ، ثم شغل عنا برمان البلي .

ضجة وصليل الترام زفة شعبية . المياه تتدفق في الحمام الكبير من الصنبور ومن البانيو ولا تنقطع . في الغرف المغلقة أصوات خ[illegible] . أشعة الشمس الذهبية قبل المغيب تغرق الصالة ، والدكتورة س[illegible] جلس في ركن الصالة المعتم ولا ترفع رأسها عن الأوراق .

[illegible] قلبي . الدكتورة سلمى لن تطير قبل أن تكمل الترجمة .

سـألت بسـام عن موعد سفر جماعتنا إلي غزة وتسليم الأدوية والمسـتلزمات الطبـية العاجلـة ، وهل من الأفضل إرسال الشحنة الثانـية عن طريق لجنة حقوق الإنسان بالبرلمان الأوربي أو جمعية أمريكية ؟ قال : لا شيء مؤكد حاليا بسبب الحصار .

التدخيـن يصيب صديقي الرسام بضيق فـي التنفس ، ويزيد الغضب مـن أزمته فترتعش قدماه ويحجل في مشيته ، توقفت عـن التدخين ولـم أتكلم .

لا قلـم ولا ورقة ولا سيجارة فـي يدي . بحثت عن بالوناتين ملونتيـن فـي جيبي ، أمسكت بخيوطها الطويلة ، وطيرتهما مـن مقعـدي دفعـة واحـدة عالية فوق البحـر ، هزتها رياح البحر ولمعت بفعل انعكاس الشمس علي الموج الهادر ، رفرفت البالونات عالـية ، وتعالت أصوات تغني : يا جبل . وفـي لحظة ابتلع التنين وقناديل البحر شبكة العنكبوت .

قطـرات دمـع تـترقرق في عيني الدكتورة سلمى وتسقط في الـبحر . أري دموعها تسقط نقطة وراء نقطة . رأيت البحر . قمت في عجلة إلي الحمام قبل أن ... الرسام يقف في الحمام الكبير غير الشـغال يغير جلدة حنفية ، اندفعت إلي الحمام الصغير وتركت باب الحمام مفتوحا ، قال :

ـ آسف يا نبيل .

المياه محبوسة أسفل بطني تندفع وتتوقف ، أحس براحة عند اندفاعها ، وألم فور احتباسها ، نظرت من نافذة الحمام ، وانتظرت سماع صوت سلمى وهي تغني : دو . ري . مي . فا . صول .

رياح إبريل الخماسينية متربة وتزأر في منور العمارة ، ولا شيء آخر ، رأيت صورتي في المرآة ولم أر كتفي سلمى أو صدرها . كنت أسمع فقط صوت المياه وهي تندفع ، ودقات الشاكوش في الحمام المجاور . في النهاية قلت : آه . استرحت . قلت آه ، ولم أقل : دو . ري .

وددت أن يشاركني الرسام الغناء ، صوته غليظ مبحوح ، لكنه يغني بطريقة صحيحة متقنة ، له أذن موسيقية ، ويزعم أنه لا يفهم في الموسيقي .

تركت الحمام ، قال الرسام وأنا أمر أمامه في الطرقة ، آسف يا نبيل مرة ثانية . ضحكت . ولم أرد عليه ، قال : طيب .

في الصالة جلست علي مقعد بعيد عن سلمى ، وكانت مشغولة في الترجمة ، وسألني بسام عن فترة بقائي في القاهرة ، ثم كلفني بترتيب مواعيد مع بعض الناس لحضور سلسلة ندوات وترتيب مظاهرات في لندن وروما وبروكسل وجنيف . قال : منعت السلطات الإسرائيلية سفر المحامين والصحافيين . حجزتهم علي المعابر . قلت : طيب .

انتهـت الدكـتورة سـلمى مـن عملها ، وأظن أنها كتبت عدة خطابات بالفرنسية ، ولخصت تقريرين ، قدمت الأوراق لبسام الذي لا يعرف الفرنسية ، وكانت قد كفت عن البكاء ولا تنظر ناحيتي .

تناولـت سـلمى المفـتاح من حقيبتها ، وأعادت التقارير إلي موضـعها فـي الـدولاب ، وقفلت الدولاب بالمفتاح ، ووضعته في حقيبـتها . وبعدهـا نظرت إلي في عتاب وكأنها تلومني وقد عرفت السر ، وتأمرني بالصمت .

سـأل بسام عن فاكس ، قلت : عندي واحد في الفندق . قال : الفندق لا يناسب . قلت : في غرفتي . قال : هذا أفضل .

جـاء الرسـام ، قال إنه أصلح الحنفية ومواسير المياه . قالت سلمى : أخيرا . نظر إليها الرسام وابتسم .

جمعـت الدكتورة سلمى حوائجها ، وذهبت لتبدل ملابسها التي تطلـق عليها ملابس العمل ، وعادت في ملابس ثقيلة ، عرفت أنها تنوي السهر .

قمنا لإرسال الفاكس ، وقبل نزولنا أعاد بسام ملف الأوراق إلي الدكـتورة سلمى وطلب منها وضعه تحت البلوفر ، ضايقني تصرف بسام ، هذا لا يجوز ، ولم أفهم مقصده تماما في البداية ، لكننا عندما نزلنا أمام باب العمارة ، أقبل اثنان علينا وتحدثا إليه بصوت خافت ، وكانت عربة شرطة تقف إلي جانب باب العمارة .

تقدمت نحوهما ، زجرني واحد منهما ضخم الجثة مثل أبطال المصارعة ، قال : سر في حالك يا نبيل بك ؟ سألته ، يعرف اسمي؟

ضحك الرجل ، ولم يرد . تحركت بهم عربة الشرطة . لحقت بالدكتورة سلمى ، قالت : نرسل الفاكسات بسرعة ؟ قلت : طيب .

صحبتني في سيارتها إلي الفندق ، وطوال الوقت ، كنت أقول الدكتورة سلمى مرجان تفهم في السياسة . سألتها عن مصير بسام الذي تبين لي أنها تعرفه جيدا ومنذ فترة طويلة ، قالت إنها سوف تتحدث مع المحامي بشأنه وتخطر لجنة الدفاع عن الحريات ، سألتها هل تعرف بسام جيدا ؟ قالت : من أيام الجامعة ، لكنها كانت لا تعرف علاقته بصديقنا الرسام إلا منذ عدة أيام .

ضحكت .

في بهو الفندق ، تقدم نحوي مدير الفندق ، رحب بي ، وقال : هناك ضيوف في الكافتيريا . قلت : طيب .

صعدت إلي غرفتي بالمصعد في الدور الرابع ، ولم أصعد إلي الكافتيريا في الطابق الأول ، أرسلت الفاكسات بسرعة ونزلت ، وجدت الدكتورة سلمى تتكلم في التليفون المحمول ، تركتها ووقفت بعيدا أراقب الموقف ، نزل اثنان من الطابق الأول وتقدما منا ، وزعم أحدهما إنه من طرف المهندس كمال بك الأغبر ، رحبت به . قال : كمال بك الأغبر يعتذر عن عدم المجيء غدا صباحا ، ويطلب

موعــدا بعد الظهر . قلت : بعد الظهر لا يناسبني ؟ نظر الرجل إلي زمــيله وابتسم . قال الثاني : بسبب اعتصام الكتاب ؟ قلت ساخطا : أيوه .

انتهــت الدكــتورة ســلمى من مكالمتها ووضعت التليفون في حقيبتها تقدمت منها ، وتركت الرجلين واقفين .

قلــت لمدير الفندق : مساء الخير . ولحقت بي سلمى وخرجنا إلـــي الشارع المزدحم بالناس . شممت الهواء . أصابني حزن ، يوم كابوســـي مـــن أولـــه . قالـــت سلمى إنها سوف تعتذر للرسام هذا الأســبوع، وتعتصم مع الكتاب في نقابة المحامين ، وقالت ذلك ولم تطلب مني الاعتصام أو الإضراب عن الطعام .

سألتها : هل تضرب عن الطعام ؟

قالــت إنهـــا لـــن تضرب عن الطعام في البداية بسبب العمل . وربما تضرب عن الطعام أيام الخميس والجمعة والسبت لعدم وجود محاضرات . وكان اليوم يوم ثلاثاء ، قلت : طيب .

كنــت أعــرف أنهـــا ســوف تضرب عن الطعام أيام الخميس والجمعـــة والســبت . العمل في اللوحة سوف يتعطل ، ولن ينتهي الرســـام قـــبل ســفري بســـبب انشغال الدكتورة سلمى أيام الخميس والجمعـــة والســبت . وكنت مشغولا بمصير بسام ، لكنني لم أخبر سلمى بقلقي عليه ، وخوفي من ترحيله سرا .

سـلمى تكلمـت مـع المحامي ، وتكلمت مع الرسام ، وليست خائفـة. الدكـتورة سلمى مرجان تتردد علي المحامين وليس لديها قضية نفقة كما ظن الرسام في أول مرة . سألتها عما قاله المحامي ، قالت : سوف يتدخل .

أمسـكت بذراع سلمى ، ووسط هذه المصائب ، لم تعد تشغلني مشاكل اللوحة . يصور الرسام قدما واحدة أو اثنتين لا يهم .

١٤
- المسألة الهمجية -

.. وتسلحت ذئاب الغابة بمنظومة فكرية .

يومـــي أربعـــون ساعة عمل ولقاءات ، عملت في الصباح في غرفتي ، وقد غاب اليوم كمال بك الأغبر ، أكملت ما بدأته في الليل وراجعت مسودات ، وطبعت أوراقا وضعتها في حقيبتي .

اتصـــلت بـــي سلمى ، وطلبت مني صحبتها إلي المقابر لمقابلة فاطمة ، قبل الذهاب إلي نقابة المحامين مساء اليوم ، وافقتها. قالت : نلتقي في الفندق في الخامسة والنصف . قلت : طيب .

زرت الرســام ، وكانت اللوحة تستند علي الحائط في مواجهة الشـــمس ، قـــال : بسام كان هنا منذ قليل . حالته طيبة . يسافر بعد عشرة أيام إلي الأردن . وأكمل الرسام : المحامي قام بالواجب .

شـــغلنا بالأحداث ، ولم أسأله طبعا عن اللوحة ، وعما إذا كان

سوف يكملها قبل سفري أم لا ؟

وسألني ، سمعت الأخبار ؟ قلت : لا . قال مذبحة جديدة . هززت رأسي . سألته عن أبي عمار . قال : القنابل تنفجر حوله وهو صامد .

في جنيف قبل حضوري ، تحدثت مع السيد يعقوب كيلنبرجر رئيس الصليب الأحمر الدولي ، وطلبت منه نشر نتائج التحقيق في مجزرة جنين . قال : الصليب الأحمر كانت مهمته في جنين إنقاذ أرواح الناس من الموت . العملية كانت صعبة . والخراب علي نطاق واسع . والموت .

يعقوب كيلنبرجر رئيس الصليب الأحمر الدولي ، رجل عجوز ، وكان يحدثني في لهجة حزينة ، ويبتعد في حديثه عن كلمات الشجب أو الإدانة ، ويقول : المساعدات ليست كافية . وأسر لي بأنه قد حصل علي بعض التسهيلات من شارون لتسهيل عمل فرق الصليب الأحمر ، وهذه خطوة مهمة.

ولما سألته عن وضعية الأراضي المحتلة الفلسطينية واتفاقيات جنيف ، قال : شارون يعتبر الأراضي الفلسطينية أراض متنازع عليها ولا تخضع لاتفاقيات جنيف .

هكذا ببساطة وضعت الأراضي المحتلة خارج نطاق الشرعية الدولية . لا قانون دولي ولا أخلاقي؟ بينما اتفاقيات جنيف هي آخر

خطوط الدفاع لتنظيم همجية الإنسان .

حدثني كيلينبرجر بصوت خفيض ، عيناه متعبتان ، يتحدث وكأنه يحمل وزر جرائم العالم ، مذبحة سيبرينتشا في البوسنة قتل فيها ثلاثون ألف شخص ، ومذبحة رواندا قتل فيها مليون شخص تقريبا ، ووقعتا قبل استلامه المنصب ، مذبحة جنين وقصف المنازل بالصواريخ في رام الله، والخليل ، وغزة ، كلها وقعت في عهده .

قال : عملنا مساعدة الجرحى ، وتوزيع الأغذية والأدوية في المقام الأول ، ثم دفن الموتى بطريقة لائقة .

اختصر يعقوب كيلينبرجر الحديث ، عملهم يتمثل في عمل الطبيب ومعاون التغذية والحانوتي ، وهذه كلها وظائف تختص بالحياة والموت . قال : هناك جهات أخرى عملها يختص بالتحقيقات.

كانت السماء تمطر منذ الصباح الباكر في جنيف ، واستمعت إليه في مكتبه وقطرات المطر ترتطم بالنافذة بسبب قوة الريح .

كان الرجل مهموما بأرقام أطنان من الغذاء تنقصهم ، وأطنان أدوية توفرت ولم تسلم ، وإعانات وهبات من الملابس الشتوية لم تصل . وهذه كلها أرقام كبيرة يصعب حصرها في الذاكرة ، سجلتها بالورقة والقلم .

ثم هناك أفغانستان والشيشان والأكراد والكونغو ورواندا

وبورندي ووو مصائب العالم تحط علي مكتبه .

الجلـوس في مقهى علي حافة المقابر يريحني من زحام المدينة ومن ذكريات جنيف . الجو بارد قليلا ، وسلمى ترتدي ملابس ثقيلة ولا خوف عليها من البرد . في الفندق في الصباح ألقيت نظرة علي ملابسها : الجاكت . البنطلون . البلوزة . مشد الصدر . السروال . ماذا لو تم تفتيش غرفتي بحثا عن أوراق ؟

حملـت ملابسها معي في تنقلاتي ، ودوما الملابس المستخدمة تـنفع ولها فوائد جمة ، الجو بارد وإذا أحست سلمى بالبرد غطيتها بها .

لم تخبرني سلمى بسبب قدومنا إلي هذه المنطقة المعزولة ، ولا أشك لحظة ، أننا جئنا لسبب هام جدا ، طبعا، لأنه ليس من المعقول أن تجرجرني إلي هنا ، وفي هذه الظروف لضرب الودع ؟ لا أظن. والـيوم لا يوافق عيد طلاقها ، لعب الفأر في عبي ، قلت ربما عيد ميلادها . وتجرجرني هذه المرة إلي المقابر . أسأت بسلمى الظنون بسـبب صـمتها ، وسرحت بعيدا ، وعدت واحترمت صمتها ، ولم أسألها عن سبب مجيئنا ، فربما فاطمة في ورطة .

سـلمى أصبحت تخاف قيادة السيارة بعيدا عن وسط المدينة ، بعد تهجم اثنان علينا ، واقتياد بسام بالقوة أمس .

حسـنا فعلت بالمجيء معها ، كما أنني يسعدني رؤية بائعة الفل

التي تبز ساندرا الكرواتية في جمالها وطول قامتها ؟

أطلب منها ضرب الودع لي . ربما لحظت سلمى تعلقي بالبنت، جرجرتني معها لتتأكد ، تظن أني ألتقي بها في صباحي ، وهذا جائز أيضا ، ففي الصباح تزاول البنت عملها وسط البلد في الأوقات التي تأخذ فيها راحة من ملاحقات الشرطة .

إذا كنت ألتقي بفاطمة كنت أخبرت سلمى ، ولن أخفي عنها هذا النبأ ، البنت حلوة وذكية ، وضاربة ودع ، وهذه وحدها مزية ، امرأة تعرف المستقبل الذي لا يعرفه أحد هذه الأيام ، ولا الجالسون في البنتاجون ، ولا السيدة رايس التي تقود العالم إلي حرب ، ليت صديقنا الرسام يصنع لها لوحة ؟

الليلة أقول لسلمى إن ضاربة الودع فتاة حلوة ، وتعرف المستقبل ، وصحبتها لطيفة علي الرغم من احترافها النشل في بعض الأوقات .

الجلوس في هذا المقهى المعتم يريحني ، وفي الحقيقة هو ليس مقهى ، ويشبه الغرزة علي الطريق ، تكعيبة عنب مغطاة بصفيح وخشب ، وثلاثة جدران مفتوحة علي الهامش الفاصل بين المقابر والطريق العام .

سألتني سلمى ماذا فعلت اليوم ؟

قلت : زرت الرسام صباحا ، وعدت إلي فندقي وكتبت طوال

الـنهار بحـثا حول اتفاقيات جنيف بعد مذبحة جنين ، ودور القانون الدولي .

سـألتني ، هل يمكن تعديل هذه الاتفاقيات ؟ قلت : نعم . وهذا لـيس فـي صالحنا الآن . سألت ، لماذا ليس في صالحنا ؟ قلت : القضية معقدة .

ضـحكت سـلمى من قولي القضية معقدة ، وشكت في أقوالي وظنـت أني أبالغ ، بينما هي بالفعل معقدة هذه الأيام . لكن من يقرأ ومن يفهم ؟

الأوراق التي كتبتها في الأيام الماضية تتناول المسألة في بعدها القانونـي الغائـب ، وهـناك حملة ضارية مكتومة ، تدور سرا في بعـض المحافل ، لتقنين الهمجية الفالتة والتخلص من قوانين الحرب التي هي تنظيم لهمجية الإنسان لا أكثر أو أقل .

المنطق الهمجي له ركائز ، ويظن الهمجي دوما أنه علي حق . والهمجي من يمتلك القوة ويستخدمها في تحقيق مصلحة خاصة بعيدا عن قوانين وأعراف الناس وضد مشيئتهم . هل تفهم الدكتورة سلمى هـذا الكـلام ؟ طـبعا . أقول لها هذا الكلام بعد أن نفرغ من هذه النشالة، وننطلق لحالنا .

الحروب والنزاعات المسلحة قديمة قدم البشر ، والحديث فقط ، هـو تقنيـن قوانين الحرب . قاطعتني سلمى غاضبة : قل شيئا يا

أخي؟

ضحكت .

أنــا طــوال الوقــت أحادثها . لماذا تتذمر وتتهمني بالخرس ؟ وبالأمارة فاتحتها في موضوع قوانين الحرب التي يتم سرا التخلص منها هذه الأيام ، وسحب حقوق المقاتل ، وحرمانه من التمتع بمزايا المحارب والأسير .

سألتني سلمى في غيظ عما إذا كنت أدخن الحشيش في النهار ، ويصيبني الخرس عندما أكون معها ؟

الخــرس كلمــة جميلة ذات جرس وغابت عني بسبب السفر . ضــحكت . النساء لا يقدرن علي الصمت لدقائق ، وسلمى لا تقدر علي الجلوس هاجعة إلي أفكارها إلا أمام الرسام .

قلــت حزينا : جربت الحشيش في هذا المكان منذ أربعين عاما ولــم يســعدني . بــدلا مــن الفرفشة والكلام تقيأت . قلب الحشيش معدتي. لم أحاول مرة أخري .

قالت : لا أظن . صديقك الرسام ، قال .. وتوقفت عن الحديث. وبعدهــا طلبت مني أن أحدثها ولا أتوقف عن الحديث لأنها خائفة . وقــبل أن أحدثها ، جاءت البنت تتمايل . فتاة طويلة القامة . مفرودة القوام . متينة البنيان . شعرها ينسدل علي كتفيها ، ووجهها يلمع في العــتمة ، وعيناها الواسعتان كسيرتان ، وتعرج قليلا داخل جلابيتها

السوداء الطويلة .

رأيتها وتأكدت أنها تعرج في مشيتها ، وأنا لي خبرة في كل ما يتعلق بالأحذية . البنت في حاجة إلي حذاء جديد ، وربما في قدميها حذاء جديد واسع لا يناسبها ، قلت ، هي لا تحترف النشل ، لأن النشل يحتاج إلي سرعة ، وهي تعرج .

جلست الفتاة في حرص علي طرف الكرسي ، ومالت بجنبها كله إلي الأمام ، عمودها الفقري مكسور ، واستندت علي المائدة المليئة بالمسامير ، فجرحت يدها بسبب ثقل جسدها عندما استندت إلي المائدة ، وبكت قبل أن تتكلم .

قامت الدكتورة سلمى لتربط يدها بمنديل . قالت البنت وهي تخفي وجهها بيدها السليمة ، وتضع يدها التي تنزف إلي جوارها : ابن الأكابر سخمطني .

كلامها غامض ، شرحت لي سلمى الأمر بالفرنسية التي أعرفها ولا أجيدها ، ولما رأت الدكتورة سلمى أنني أتابعها بصعوبة ، وقد توقفت عن الفهم وتبلدت ، كلمتني بالإنجليزية . قالت : ربطها وضربها بكرباج و ..

- كدت أقوم .

لتذهب وتبكي حظها العاثر أمام فيلته التي ذهبت إليها برغبتها . ابن الأكابر . حكاية سمجة . وهذا لا يصح . من غيظي سألت سلمى

عن سبب معرفتها بهذه الفتاة ؟

قالـــت : من أجل البحث العلمي يا عزيزي . وروت لي قصة طويلة باللغة الإنجليزية ، بينما البنت يدها تنزف .

تنبهت إلي الدماء التي تشر من يد البنت . البنت تنزف . هيا . تناولــت حقيبتي الورقية ، أخرجت ملابس الدكتورة سلمى الشيك ، وربطت بها يد البنت . سألتني سلمى عن طبيب من معارفي . قلت: هذه مسألة في حاجة إلي طبيب ومحام .

قالت البنت : أرشه بالنار .

هــدأت الدكــتورة ســلمى من ثورتها ، حادثتها في ود ، مالت علــيها وســألتها عــن آلامها ، ونصحتها بزيارة طبيب يكتم سرها ويصــونه . حديــث بين امرأتين في قضية خاصة ، سمعت صوت الــرياح ، رأيــت الموتــى ، ملابس الدكتورة سلمى التي كنت أعد لخــرقها لوثتها دماء الفتاة التي تشبه ساندرا الكرواتية . أكملت ربط يدهــا ، وانســحبت من الجلسة الكئيبة ، وسرت علي الرصيف أشم الهواء البارد ، حتى رأيت أنوار القلعة من بعيد .

أحسست ببصيص نور يغمزني ، وهدأت نفسي قليلا عند رؤية القلعــة من بعيد ، القلعة قطعة من التاريخ ، وهذه الأيام يصنع فيها تــاريخ آخــر لحاضرنا ، وما روته الدكتورة سلمى بالإنجليزية من وراء البنت غريب . قالت : دار نشر عالمية تدعمها منظمات دولية

غنــية ، رأت رصـــد العلاقـــة بين اللغة والجنس من أجل التنمية .
الجــنس لدى الطبقات غير المتعلمة : الشغالات . بائعات الخضار .
المومسات . النشالات . استمارة من خمسمائة سؤال كلها تدور حول
الجنس ووظائف الأعضاء ، ومرادفات كلمات مثل الفرج . الرحم .
المبــيض وغــيرها ... لحصر تطور اللغة . أسبوعا واحدا عملت
معهــم ، وهربــت قــبل أن أجن ، تعرفت علي فاطمة التي عينتها
الخبيرة الأجنبية مستشارة للمشروع .
قطبت ولم ابتسم .

بعدهـــا قالـــت الدكتورة سلمى تسخر مني ، هذه هي العولمة
الحقيقية وليست العولمة النظرية التي تحدثنا عنها . هنا كل كلب ابن
كلـــب معه نقود يبيع لنا الوهم . سألتها عن أجرها في تلك العملية،
قالــت : الأجــر بـــالدولار يـــا عزيزي ولا تعد ، وهناك أجر آخر
للـــترجمة . رفضت العمل ورفضت النقود . صمت فقط ، وإلا كنت
فقدت بعثتي إلي أمريكا .
سمعت الحكاية في الموضع المناسب ، سمعتها علي حافة مدينة
الموتـــى ، لأنتـــي لو كنت سمعتها في موضع آخر غير القبور كنت
جننت . وربما أيضا أكون قد جننت بالفعل ، ولا آخذ بالي .
الحديث عن مسميات الفرج والرحم من أجل التنمية ؟ عدت إلي

المقهى ، وجدت الفتاة ، ويدها ملوثة من الخارج بالدماء ، قلت لها أسمك ليس فاطمة ؟

قالت : اسمي بدوية يا بيه ؟

قلت : طيب .

حادثت طبيبا من معارفي ، طلبت منه العناية بها ، وكتبت لها العنوان . قامت تعرج . قالت الدكتورة سلمى ، نأخذها معنا في السيارة قبل الذهاب إلي نقابة المحامين . يدها تنز دما ، ولن يقبل سائق تاكسي توصيلها .

كنت أفكر في ملابس الدكتورة سلمى المستخدمة التي نويت حرقها ولوثتها دماء بدوية ، طلبت من البنت حرق الملابس بعد فك الأربطة ، قالت : أغسلها وو ، زجرتها بشدة، قلت : أحرقيها . فاهمة . قالت البنت فزعة : حاضر يا بيه أحرقها .

طلبت من بدوية حرق الملابس التي تلوثت ، ولم أحدد لها أين تحرقها ؟ اكتفيت بحرقها ، طبعا ستحرقها بدوية أمام عتبة بيت مهدم في حارة ضيقة مزدحمة بالناس ويشاهدها الرايح والجاي ، وهذا أيضا حسن . حفل . الملابس الملوثة بالدم يتعين حرقها . سألت الدكتورة سلمى لأتأكد ، هل تحرق بدوية الملابس ؟ قالت : طبعا .

ضجة عالية داخل المقهى تسمح لنا بالكلا م، وحديثنا كله يدور

حول مسميات الفرج والرحم والمبايض والبواسير ، والفتي السهتان أبو شعر مسبسب ، وكيف قيدها إلي السرير ، وبالكرباج وهات يا ضرب ، ومؤخرة بدوية التي تنزف ، رجال وصبية يلعبون الطاولة والدومينو في عمق المقهى ، ولهم ضحكات عالية وقفشات ، ونحن نجلس في مدخل المقهى نتحدث في أمورنا علي راحتنا .

فجأة سكتت المقهى .

توقفنا عن الحديث والتفت إلي الخلف لأعرف سبب هذا الصمت، كان التلفزيون يعرض جنازة طفلين صغيرين ملفوفين بالعلم الأخضر . طفلان حجمهما صغير جدا ، أحدهما من رام الله والآخر من الخليل ، وشارون بكرشه الضخم يهدد ويتوعد ، انتهى الخبر ، قالت سلمى في حزن :

ــ الصليب الأحمر لن يرسل لهما رمان بلي .

تمت

بازل ــ جنيف ــ القاهرة

مارس ٢٠٠١ ــ آخر مارس ٢٠٠٣

شكر وتنويه

يشكر الكاتب الصديق الشاعر بشير السباعي لموافقته علي نشر قصيدته المرأة الجميلة في متن الرواية في سياق مختلف ـــ كما يشير الكاتب إلي أن الاقتباس الوارد في مقدمة الرواية عن منطق الهمجي عن كتاب الدولة والأسطورة لإرنست كاسيرر ترجمة الدكتور أحمد حمدي محمود ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥ ، فلزم التنويه .

جميل عطية إبراهيم

جميل عطية إبراهيم

ـ من مواليد الجيزة في ٧ أغسطس ١٩٣٧

ـ يكتب القصة القصيرة والرواية ومن مجموعاته القصصية " **الحداد يليق بالأصدقاء** " و " **أحاديث جانبية** " ومن رواياته " **أصيلا** " و " **البحر ليس بملآن** " و " **النزول إلي البحر** " و " **ثلاثية ثورة ١٩٥٢** " في ثلاثة أجزاء و " **وأوراق سكندرية** " و " **خزانة الكلام** " و " **نخلة علي الحافة** "

ـ شارك في تأسيس مجلة " **جاليرى** ٦٨ "

ـ نشرت أعماله في مصر والعالم العربي وترجم بعضها إلي لغات أجنبية .

ـ يقيم في سويسرا منذ عدة عقود .

هذه الرواية

علـــي خلفية اتفاقيات جنيف والقانون الإنساني الدولي و تشكيل محـــاكم جرائم الحرب ومباحثات السلام في البوسنة والهرسك تدور أحـــداث هـــذه الـــرواية وتتحرك الشخصيات بين عالم الواقع حيث مجازر البوسنة والهرسك ومذابح شارون وحصار العراق من ناحية وعـــالم لوحـــة الدكتورة سلمى مرجان التي تولد وتكتمل شيئا فشيئا فيـــتأرجح القارئ علي حافة سؤال عن عبثية الواقع وحقيقة الفن في عالم يتمزق .

نبيل سعيد مهووس بحرق ملابس الدكتورة سلمى حتى لا تطير وســـلمى توافـــق بشـــرط اختيار مكان يليق بأسطورة القرن الواحد والعشرين وشقة الفنان التشكيلي يقطن فيها بندق الذي قتله الفرنسيس منذ قرنين ويلعب برمان البلي ونبيل سعيد يسعى لقتل العنكبوت الذي تتعلق بأطرافه نجمة داود وفي ذيلها قنبلة نووية .

في هذه الرواية ينسج جميل عطية إبراهيم لوحة موزاييك متداخلة تترك القارئ علي حافة أسئلة عدة عن واقع مجنون يعيش فيه شخوص يحاولون إضاءة المساحات السوداء في جلد . أناس يفرحون باللعب بالبالونات ويستمعون لموسيقي سبيليوس وطوال الوقت يبحثون عن العدل .

هذه الرواية تكمل مسيرة الكاتب الكبير حميل عطية إبراهيم الأدبية وتحلق في أفاق جديدة علي الرواية العربية .

تجليات أدبية

رفضت فقط حرق الملابس في الحمام أو في الشرفة، أو فوق السطوح. يجب حرق هذه الملابس في منطقة أثرية تليق بها، هذا حفل. لنصنع أسطورة القرن الحادي والعشرين على طريقتنا. البعض يتزوج تحت الماء. البعض يعقد قرانه معلقا في بالون في الهواء. ونحن سوف نحرق ملابس جديدة لغرض في نفوسنا. حرق ملابس مستخدمة أو جديدة ليس عيبا أخلاقيا، ولا يتعارض مع حقوق الإنسان. ربما فقط أمر فيه بلاهة. نعم. وما العيب في ذلك؟ البلهاء لهم النعيم. جمعتنى الصدفة بالدكتورة سلمى مرجان، وجدتها أكثر بلاهة مني. صدقتني. صدقتها. البلهاء لهم نصف العالم. أما الأذكياء فلا يعرفون سوى ذ
ولنا في شنق المهندس نابغة زمانه حكمة.
شراء العباءة بدلا من الملابس المستخدمة ق
حسن نيتي، وجعل الصفقة ليست خاسرة بال
للدكتورة سلمى. وهي تفهمني بعيدا عن ح
الربح والخسارة.



ميريت